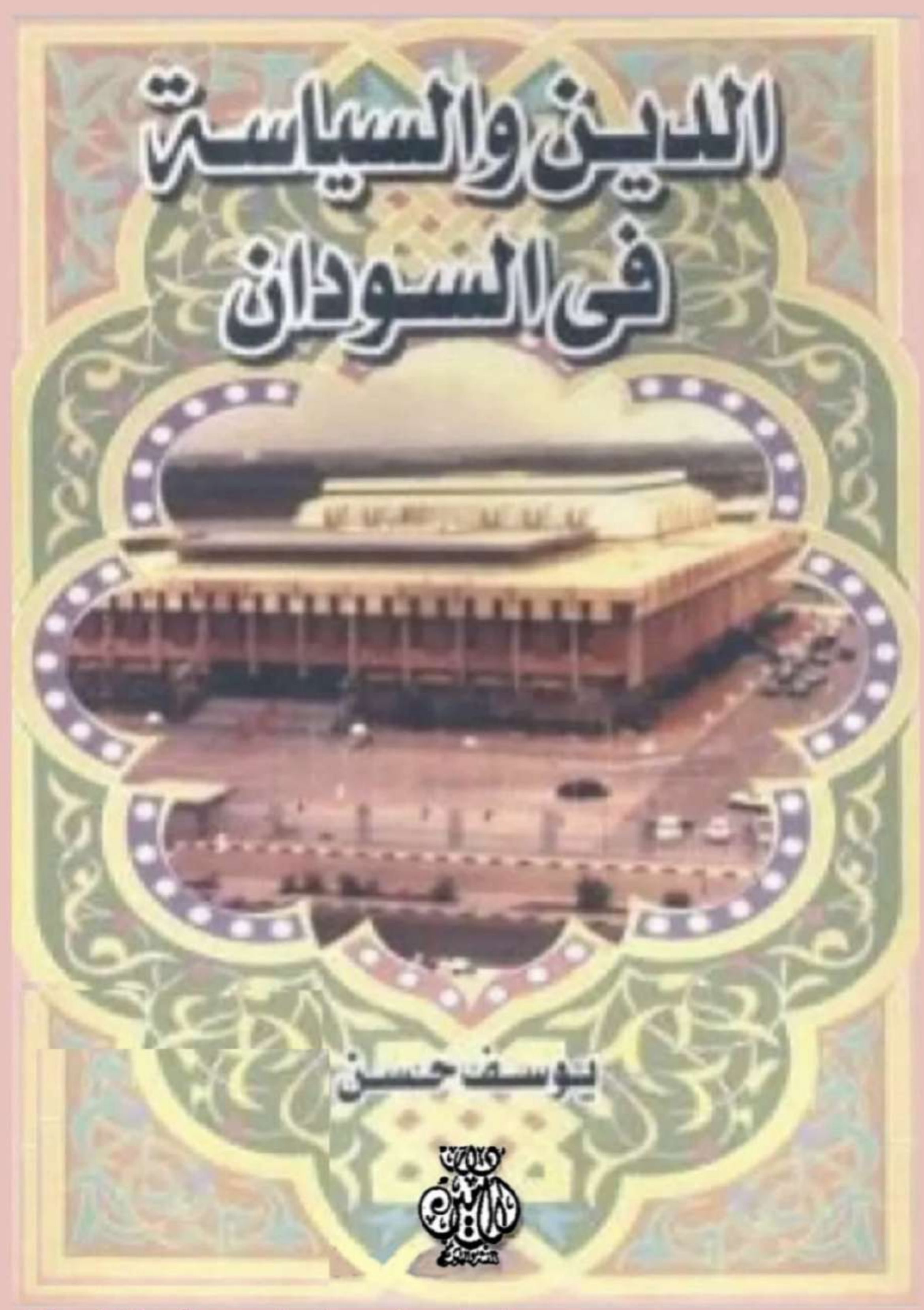

الدين والسياسة
في السودان
يوسف حسن

الدين والسياسة
فى السودان

يوسف حسن







القاهرة : ١٣ شارع البركة الناصرية (من شارع نوبار) السيدة زينب - لاظوغلي
تليفون ٧٩٥٤٣٧٦ فاكس ٣٩٠٠١٣٠
ص . ب : ١٣١٥ العتبة ١١٥١١

الجيزة : ١ شارع سوهاج من شارع الزقازيق (خلف قاعة سيد درويش)
الهرم - تليفون : ٥٦٣٤٦٩٩
ص . ب : ١٧٠٢ العتبة ١١٥١١

جمهورية مصر العربية

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

رقم الإيداع ٥٢٥١/ ٢٠٠٠
ISBN : 977-279-210-4

التنفيذ الطباعي : دار الأمين للطباعة

الإخراج الفني : جمال فتحي أحمد

تصميم الغلاف : الإسراء لفصل الألوان والتجهيزات الفنية (ا فى بلس كمب - مستخرج من فى السويدن - الكويت كات)
تليفون ٣١٤٣٦٣٢

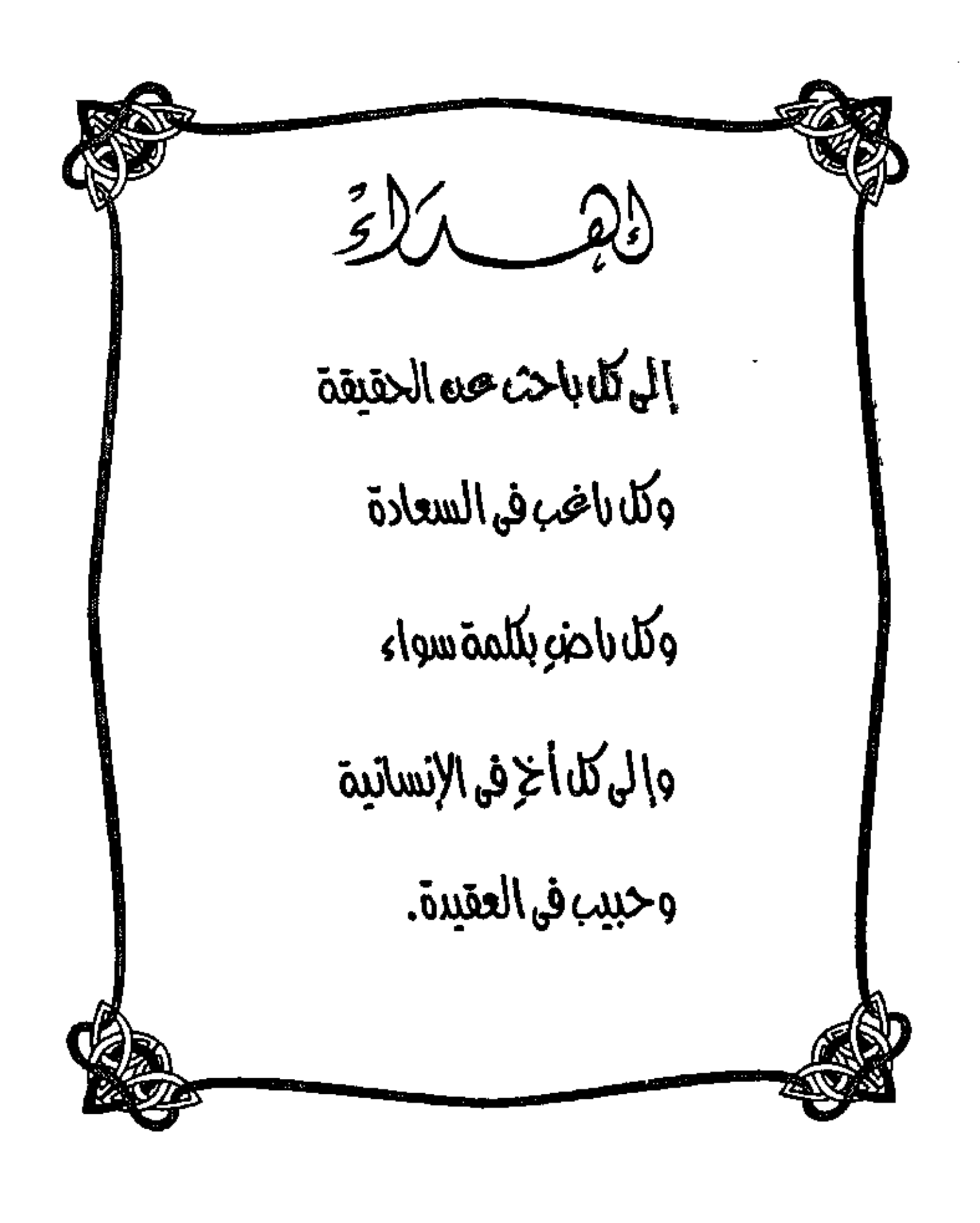
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾

[الآية ٣٦ من سورة يونس]

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

[الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء]



إهداء

إلى كل باحث عن الحقيقة

وكل راغب في السعادة

وكل راضٍ بكلمة سواء

وإلى كل أخٍ في الإنسانية

وحبيب في العقيدة.

تقديم

مؤلف هذا الكتاب تشرب الإسلام عقيدة وفكراً وسلوكاً واختلطت الأنصارية بلحمه ودمه ومخه وعظمه بعد أن استقرت فى سويداء قلبه . وملتزم بمنهج الصحوة تأصيلا وتجديداً . . أدركت ذلك من خلال معرفتى اللصيقة به إقامة وسفراً ومن خلال حواراته ونقاشاته وكتاباته . وداعياً إلى ما آمن به فى صبر وثبات مبدئياً فى قناعاته وأفكاره . تعرض لابتلاءات كثيرة . بعضها ناتج من شفقة الأصدقاء وحبهم وبعضها من حسد الخصوم وغيرتهم . ولا غرابة فى ذلك فكل دعاة الحق تعرضوا لهذا . . قال الشيخ الشعراوى : « من لم يتعرض من دعاة الحق إلى البلاء فقد نقص حظه من ميراث الأنبياء » وقال الأستاذ أحمد بهجت : « قد تجد السم فى الدسم فلا تحفل وقد تجد الملح الأجاج فى الماء العذب فلا تحزن وقد تجد السكين بيد الغانية فلا تجفل وقد يغدر بك الصديق فلا تغضب ! ادفن الطعام واسكب الماء واغفر للغانية وتجاوز عن الصديق وسر فى طريقك فأنت من حراس الحقيقة » .

إن ما تقدم ليس إطراءً وإنما هو اعتراف لأهل الفضل ، وإحقاقاً للحق . . والساكت عنه شيطان أخرس .

إن هذا الكتاب يعتبر إضافة حقيقية لمكتبة الصحوة الإسلامية ومحاولة جادة لتحصين المنتمين وإرشاد الحائرين وتنبيه الغافلين ودعوة صادقة للذين اختلطت عليهم الأمور وتشابه عليهم البقر أن يدرسوا هذا الدين بعقول مفتوحة . وبعيداً عن تأثير الأحكام المسبقة ليميزوا الخبيث من الطيب .

إن القراءة الصحيحة لهذا الكتاب تقول إن جوهر ما يعنيه هو دعوة القارئ إلى الآتى :

أولا : الاعتزاز بالانتماء للإسلام الرسالة الخاتمة التى اشتملت على أصول الرسالات السماوية وامتازت عليها بالختام والعموم والنجاح المنقطع النظير فى عالمى الغيب والشهادة . إن الانتماء لهذا الدين عز وفخر كما قال عمر بن الخطاب «كنا أذلاء فأعزنا الله بالإسلام ، فإذا طلبنا العزة فى غيره أذلنا الله » .

وصدق الذى قال :

ومما زادنى شرفاً وتيهاً وكدت بأخمصى أطأ الثريا

دخولى تحت قولك يا عبادى وأن صيرت أحمد لى نبيا

ثانياً: إن المفاهيم والممارسات التى كان عليها رجال الدين فى الكنيسة فى أوروبا قبل الثورة ، والتى طردت الإنسان طرداً من الاعتقاد الدينى وولدت نظريات وأفكاراً تكفر بالدين وتعاليمه . هذه المفاهيم والممارسات لا وجود لها فى الإسلام البتة . . وإن المسلم غير محتاج للتخلى عن دينه ليقبل التسامح مع الآخرين والتعايش معهم مهما كان دينهم ولونهم وفكرهم واعتقادهم . . فالمسلم يقرأ فى القرآن ﴿ كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا ﴾ ولا تناقض بين الإسلام وبين مسلمات العقول والنتائج العلمية للتجارب .

ثالثاً: أن يفطن القارئ إلى أن هنالك بعض الناس لديهم أحكام جاهزة يريدون أن يقسروها قسراً على الإسلام ويريدون ان يعمموا مفاهيم وممارسات رجال الدين فى اوروبا عهد الظلام على كل دين حتى وإن كانت مرفوضة لديه ومحرمة فى تعاليمه .

رابعاً: ضرورة الفصل بين تعاليم الإسلام ومبادئه وبين ممارسات بعض المسلمين لأن تلك الممارسات اجتهاد بشرى تحكمه عدة عوامل. فالأخطاء الناتجة من الممارسات تنسب لأصحابها ولا تنسب بأى حال من الأحوال للإسلام .

خامساً: النظرة إلى الإسلام ينبغى أن تكون نظرة شمولية لأنه دين الفطرة جاء لهداية البشرية منقذاً لها من الظلمات إلى النور ومبينا لها طريق النجاح والفلاح فى الدنيا والآخرة ومشبعاً لرغباتها الفطرية وملبياً لمطالبها المشروعة بطريقة موزونة وحكيمة مراعية لحقوق الآخرين ومطالبهم. فواجب دعاة الإسلام أن يعرضوه بهذه النظرة الشمولية وبأسلوب الحكمة والموعظة الحسنة فما ضر الإسلام إلا العنف والنظر من جانب واحد وما ساءه إلا الإفراط والتفريط .

إن الإسلام الدين فى تمدد وانتشار كل يوم رغم ضعف المسلمين ولكن الإسلام الحضارة والإسلام النظام الاجتماعى فى انحسار وإخفاق. وكثرة الداخلين فى الإسلام كل يوم من كل أنحاء العالم وانتشار حركات التصوف دليل على انتشار الإسلام الدين .

وأما انحسار الإسلام الحضارة والإسلام النظام الاجتماعى فأدلته كثيرة منها حالة التخلف والضياع التى تعيشها مجتمعات المسلمين وفشل التجارب القطرية للبعث الإسلامى فى إيران والسودان والجزائر وأفغانستان. وبالطبع فإن ذلك لا يرجع للإسلام وإنما يرجع إلى أخطاء بعض المسلمين وقصر نظرتهم.

إننا فى أمس الحاجة للفهم الصحيح للإسلام والفهم الجيد للواقع والإلمام الواعى بالعصر وتحدياته والاستفادة من تجارب الماضى والحاضر لتجنب الأخطاء والمعرفة الدقيقة لمخططات الأعداء لتفادى الوقوع فى الشراك. بمراعاة كل ذلك نستطيع أن نقدم تجربة إسلامية تعيد الثقة إلى أهل الانتماء ويطمئن إليها المشفق الخائف ويحترمها العدو العاقل ويغتاظ منها الحاقد ﴿ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور ﴾.

إن هذا الكتاب يتميز بسلاسة الأسلوب وعمق الفهم ووضوح المقاصد شخّص الداء ووصف الدواء

نسأل الله أن يجزى مؤلفه خيراً ويثيبه على مجهوده وأن ينفع به القارئ.

عبدالمحمود أبو إبراهيم

مقدمة

حقائق الإسلام الساطعة التى اهتدى بها الأميون واتحد البدو المتفرقون وتحابب الأقربون والأبعدون المتقاتلون ، جنى ثمارها كل أولئك عزاً ومجداً وكرامة وسمواً وقدرة بالحق ضد الباطل وبالعدل على الظلم وبالحرية على الاستبداد وبالمساواة على الميز وبالإيثار على الأثرة وبالحب على البغض ، فدعوا إليها بأخلاقهم الفاضلة وسلوكهم الحميد منذ انتهوا عما نهتهم عنه وامتثلوا ما أمرتهم به فحققوا السعادة لأنفسهم ولغيرهم حيناً من الدهر .

بتلك الحقائق الساطعة نظرياً وبذلك التطبيق الدقيق عملياً عزّ السلف وافتخر الخلف من المسلمين واعترف وشهد من عاصر التطبيق الدقيق أو درس النصوص وفحص التاريخ مخلصاً .

ثم مّرت قرون وحقب غلب فيها وحكم باسم الإسلام من غلب وحكم ، حكماً غاشماً وملكاً عضوضاً - كانت بيعته قهراً وقسراً بعد أن لوّح الغالب بسيفه الملطخ بدم الشورى الذبيحة - ولا عدل ولا حرية ولا مساواة ولا كرامة ولا حرمة لمال ولا دم ولا عرض ولا حق ولا نصح فى حكم يبدأ بإعدام الشورى ويحمى نفسه بحد السيف كالذى حدث فى السودان هذه من حقائق جور الحكم باسم الإسلام التى نبأ بها القرآن وتنبأ بها رسول الإسلام ولا تحتاج من ذى العقل السليم لكثير اجتهاد لينفى نسبتها إلى الإسلام طالما أن حقائق النظرية محفوظة مصونة عن التحريف وتجارب تطبيقه السليم لم يختلف حولها الخصوم ، بل أبلغ أدلة الاعتراف بصحتها وتفوقها أن من يدعو لسواها يرمى خصومه بادعائها وسوء استغلالها .

هذه الحقائق يريد بعض الناس أن يلفّها بخرق المسيئين فيرمى بها خارج سور حياتنا . فهل تلك حقيقة وهل ذلك ممكن وإذا تم إبعاد هذه الحقائق والتجارب الوضاءة عن حياتنا فمن الظالم ومن المظلوم ومن الخاسر ومن الرابح؟

أسئلة سأحاول الإجابة عليها ما استطعت إلى ذلك سبيلاً .

وما توفيقى إلا بالله

المؤلف

أسئلة لا يمكن تجاهلها

■ واضح أن هناك أخطاء مركبة أدّت إلى أن يجيء هذا الموقف السلبي من علاقة الدين بالسياسة، فمن أين جاءت هذه الأخطاء وكيف السبيل إلى تصحيحها وما حقيقة علاقة الدين بالسياسة؟ هذه أسئلة تبدأ الإجابة عليها بالإجابة على أسئلة أساسية عن ماهية السياسة ومفهومها وأهدافها، وتعريف السياسي وصفاته وواجباته. ثم ما هو الدين وما صلته بالسياسة والحياة. ومن أين جاء مفهوم فصل الدين عن السياسة؟ وهل جاء بسبب موقف الدين أو الوحي الإلهي في أي مرحلة من مراحله من الحياة أم أنه بسبب فهم بشر لدين واحد من الأديان أو ممارسة فرد أو جماعة أو حكومة في مرحلة من مراحل التاريخ الغابرة أو المعاصرة يريد البعض أن يعمم موقفه منها جهلاً أو ظلماً واستغلالاً على جميع الأديان؟ ثم ما هي أسباب وأشكال ومواقع الاختلاف بين رجال العلم أو السياسة ورجال ذلك الدين أو المذهب؟ وهل نفس تلك الأسباب تنطبق على الإسلام؟

ما موقف الإسلام من أهم عناصر ذلك الخلاف بين رجال الدين والسياسة في ذلك الدين؟ ما موقفه من العلم؟ من العقل؟ من الحضارة؟ من الإنسان أي إنسان؟ ومن مخترعاته واكتشافاته؟

ثم هل هذا الموقف السلبي من الدين والذى أدى إلى المناداة بفصل الدين عن السياسة هل هو فهم مجمع عليه في هذا العصر؟ وهل هو مطبق في الغرب ونظمه السياسية؟ ما معنى وجود أحزاب سياسية دينية في الغرب: في ايطاليا وفرنسا وألمانيا؟ ما موقف الغرب من الكنيسة ومن البابا؟ ولماذا وتحت أي ستار قاد الغرب حملاته الاستعمارية في الماضى القريب؟ ما موقع المبشرين منها؟ ما دور الكنيسة فيها؟

ثم ما موقع البابا في الغرب وما موقف ساسة العالم الغربي وقادته من خطبه وجولاته وتوجيهاته في الأخلاق والسياسة ومع الحقوق وضد الحرب؟ أليس هو محل التقديس والتعظيم وليس فقط الاحترام والتبجيل؟

ثم أليست إسرائيل دولة دينية المنشأ والمسمى؟ أليست هي الدولة الخاصة المخصوصة لليهود دون سواهم؟ أليست هي الدولة التي لا يجوز لغير اليهودي اعتقاداً وسلالة أن يدفن في مقابرها، وإن قاتل في صفوف جيشها دفاعاً عنها؟ أليست هي الدولة التي تمارس عنوةً

واقتداراً وعلناً وجهاراً الميز العنصرى ضد الفلسطينيين وغيرهم؟ وهل محاولات إسرائيل لفرض سيطرتها على القدس وإصرارها على نقل عاصمتها إليها ومنعها للمسلمين والمسيحيين من زيارة بيت المقدس إلا بسبب تعصبها الدينى؟ ما موقف دعاة فصل الدين عن السياسة من خلط الدين بالسياسة فى دولة «عبدالله» إسرائيل؟ أليس التبنى والحماية؟!

ثم هل المقصود بالرفض من الدين هو الاعتقاد فى التوحيد ترجيحاً لدعاوى الإلحاد أم المقصود بالرفض منه التعبير عنه بممارسة العبادات؟ أم أن المقصود رفض بعض التجارب التى تمت باسم الإسلام من مسلمين أو متمسلمين فى الأقضية والمعاملات على مستوى الأفراد أو الجماعات أو الحكومات؟

وهل الإسلام وحده هو المذهب الذى أساء بعض منسوبيه باسمه جهلاً أو قصداً؟ أليس هناك غربيين رأسماليين ومسيحيين ومشرقيين اشتراكيين شيوعيين وأوسطيين بعثيين غرقوا وأغرقوا وما يزالون فى غمرة ساهون وما يزالون يخوضون فى أوحال الظلم والاستبداد والإهلاك لأممهم وشعوبهم وجيرانهم بسبب تطبيقهم لما اعتقدوا أنه المسيحية أو العلمانية أو الشيوعية أو البعثية الحقيقية؟

هل نادى المنادون بفصل الدين عن السياسة بسبب إساءة بعض منسوبيه بفصل الشيوعية أو البعثية أو العلمانية أو الرأسمالية عن السياسة وقد وقع من بعض منسوبيها أفراداً وجماعات وحكومات ماضياً وحاضراً ما عم شره وضره؟

وإذا كان الأوروبيون قد لجأوا إلى العلمانية لأن رجال الكنيسة عندهم فى ذلك الزمان المظلم أرادوا أن يحتكروا الدين والدنيا ويفرضوا هيمنة الكنيسة ويوزعوا صكوك الغفران لمن يشاءون إعطاءه هذا بينما المسيحية الأصيلة - دعك من المحرّفة - ليس فيها نظام دولة وإنما هى دعوة إلى التوحيد من ناحية علاقة الإنسان بربه ودعوة إلى المحبة من جانب علاقة الخلق ببعضهم.

إذا كان ذلك هو الواقع الذى دفع النهضويين فى القرون الوسطى إلى مقابلة تطرف رجال الكنيسة فى المسيحية المحرفة ضد العلم والعقل ونظرياته وضد التجربة والملاحظة واكتشافاتها بتطرّف علمانى يدعو لإقصاء الدين عن السياسة، فهل فى الإسلام رجال دين لهم حق الوصاية على الدين أو معتنقيه؟ وهل فى الإسلام صكوك غفران؟ وما هو موقف الإسلام من العلم؟ وهل الإسلام دين روحى يعنى بالروح دون الجسد أم أنه زيادة على

ذلك الغذاء الروحي يهتم بغذاء ورعاية الجسد وكما يركز على معنويات الوجود يحفل بمادياته؟ وزيادة على ذلك يتضمن الإسلام تشريعات تنظم علاقات البشر ببعضهم البعض وتحدد حقوق كل منهم وواجباته وتشريعات وقواعد وموجهات فى العلاقات بين الإسلام والأديان السماوية الأخرى والمذاهب الوضعية المختلفة والنظريات والاختراعات فى الاقتصاد والتجارة والطب والحرب والسلام وفى الأخلاق والتربية وعلاقات الرجال بالنساء والصغار بالكبار والأغنياء بالفقراء والأقوياء بالضعفاء والبشر بغير البشر من مخلوقات الله ليس مجرد الاهتمام عطفاً أوعطاءاً وليس دعوة وإرشاداً أوترشيداً بل استفادة من كل تجربة واعتماداً لكل معرفة وأخذاً بكل حكمة ، من أى جهة جاءت ، فالحكمة ضالة المسلم « أنّى وجدها فهو أحق بها » .

قصور الاستيعاب أم ضعف الالتزام

■ يشق على المرء أن يتهم بعض القادة المثقفين بقصور الاستيعاب أو ضعف الالتزام وهم من هم على قمة الثقافة والمعرفة ومقدمة الركب بزعمهم وزعم غيرهم وبواقع الحال. ولكن ماذا نقول أمام نتائج استيعابهم وأعمالهم بل خلاصات أقوالهم التى بلغ وضوح الضعف والخطأ فيها من الوضوح ما يبلغه الملموس والمرئى والمسموع فهم فعلاً فى القيادة ولكن السفينة لا تكاد تنقذ من غرق حتى تغرق مرة أخرى . . فإما أن يكون العيب فى السفينة أو فى القبطان أو كلاهما . . وكلاهما مسؤولية القبطان .

وبالنسبة لموضوع الديمقراطية فقد رأينا وسنرى أنه لا يوجد تعارض بينها وبين الدين وخاصة الإسلامى ، وأنها موجودة فى الإسلام بقدر أدق وأعمق وأصدق إن جاز أن تقدر بقدر أو تقاس بمقياس . وسنرى أنه لا غضاضة أن تسمى ديمقراطية أو شورى .

يبدو أن أكثر المدافعين عن الإسلام والمنادين بالديمقراطية لم يتوافروا على دراسة الأمرين ، بل دراسة الأمر الواحد فيهما ناهيك بأن يفحصوهما بحثاً عن نقاط الالتقاء والتطابق ومقاطع الاختلاف والتباين . ومن فعل شيئاً من ذلك فربما كان على عجلة من أمره فاكتفى بما تيسّر والتقط السهل الخفيف من الحجج لزوم السفسطة والجدل .

إن هناك ما يدعو إلى شك فى فهم وجدية أو قناعة بعض القادة والمثقفين متحزبين ومستقلين بما يدعون له أو ضده من إسلام أو علمانية أو غيرهما. وهناك اتهام لبعضهم يجد ما يسنده من الأدلة، يقول الاتهام بأن هذا البعض من المثقفين يخوض المعركة بغير سلاحها ومن أبراج الاستعلاء والاستكبار الصفوى والدليل ما يدور فى الجلسات الخاصة من أحاديث وما يقع فيها من أفعال وممارسات غارقة فى شهوانية التسلط والتميز والاستعلاء، حتى فى الممارسة الديمقراطية تصر بعض الفئات على أن تميز نفسها عن عامة الناس بحق انتخابى أكثر كماً وأعلى نوعاً ودرجةً، بحجة المهنة والدرجة العلمية؛ خريجون وقوة حديثة.. ا هذه الطبقة من الصفوة تمارس التأثير على الرأى العام من قريب ومن بعيد حتى حينما تختار لنفسها الاسترخاء فى مقعد الحياد والاستقلالية أو اعتزال السياسة والتظاهر بالبعد عنها. فهم أصحاب وأقارب القادة والسياسيين ينالون بصحبتهم وقربهم ما يشتهون من مناصب ومكاسب ولا يكلفهم ذلك أكثر من إظهار الميل للحزب أو الاهتمام ولو مرة مقصودة بشأن سياسى والتعبير عن رأى مطابق أو مقارب لرأى الحزب المقصود. بل تؤثر هذه الطبقة فى توجيه الرأى العام بمجرد أن تعبر عفواً أو بغير اكتراث عن عدم اعترافها أو خضوعها لحكومة فلان أو الفلانيين رغم اعترافهم بأنها حكومة منتخبة انتخاباً حراً نزيهاً وفق النظام الديمقراطى الذى لا تفوتهم لحظة فى التعبير عن المناداة به إن غاب والدعوة إلى الحفاظ عليه إن قام، هذا على الرغم من أن كل إجراءات الديمقراطية يقوم بها هؤلاء الصفويون. بدءاً من قانون الانتخابات وتقسيم الدوائر كماً ونوعاً إلى تسجيل الناخبين ووضع جداول الانتخابات وتنفيذها حتى آخر مراحلها.

هذه علل قاتلة؛ علل السلبية المؤثرة والتزييف المستمر وقصور الاستيعاب والفهم وضعف الالتزام بالمبادئ وضعف الجدية عند التنفيذ والممارسة. علل وعيوب تعاب على العامة دعك من القادة والمثقفين. وما لم تعالج هذه العلل فإن جسم المجتمع سيستمر فى هزاله، وهياكل أنظمته ستستمر فى تحللها وتخلخلها ولن تعالج ذلك المسكنات الوقتية والمسميات المفرغة والخطب الدونكوشوتية.

وبعد فإن ما أريد أن أقوله خلال هذه الصفحات هو أن حقيقة الموضوعية والعلم أن يعرف الإنسان طريق السعادة، والأكمل أن يكتشف طريقاً خالياً من المطبات والعوائق يخرج منه سعيداً سليماً فى الدارين، وأنَّ ما يقرره الإسلام من حقوق وما يوجه من

واجبات هو ما لابد منه لسعادة كل إنسان سواء اعتنق ذلك الإنسان الإسلام أم لم يعتنقه. وأن ما يحرمه ويمنعه هو ما بعدمه تصح الأجسام وتسلم العقول وتحفظ الأموال والأنسال وتصان الكرامة ويسلم المجتمع فيسعد كل من فيه بصرف النظر عن نوع دينه أو اعتقاده. وأن العقوبات ما هي إلا عصا غليظة ترفع في وجه المسلم الذى يريد أن يضر نفسه أو غيره فى نسله أو نفسه أو عقله أو ماله أو عرضه أو كرامته وهى تقع فقط على المجرم المصر المستهتر وليسى المخطئ بجهل أو سهو أو اشتباه ولا المستتر ببليته عن العيون أو من دفعته إليها ضرورة.

حقائق الإسلام بين أخطاء الممارسة والفهم وأغراض الخصوم

■ كما أن كثرة الكلام عن الشيء تعنى شدة حبه عند من يحبه، فهى قد تؤدى إلى ذهاب هيبته عند الطرف الآخر من ناحية أو إلى شيوع الفهم الخاطئ بزيادة طردية مع عدد من يتبادل الحديث في الموضوع وعدد مرات التبادل. ففى كل مرة ومن كل متحدث تحدث عمليات حذف وإضافة لكلمات وعبارات قد تغير المعانى والمفاهيم. وتتضاعف شدة البعد عن النص الحقيقى بسبب نقل السمع أو خطأ الفهم أو عدم الدقة فى التعبير وهى أمور تختلف من شخص إلى آخر بدرجة من الدرجات على نحو ما علمنا فى المدرسة الابتدائية، هذا إذا كانت العبارة الأولى صحيحة ودقيقة التعبير عن الموضوع فكيف إذا كانت العبارة المنقولة معيبة من عدة أوجه منها أنها:

(أ) صادرة في الغالب عن متحمسين بلا وعى.

(ب) واردة فى الغالب إلى خصوم متحمسين بوعى، أو بجهل. ووعيهم فى الحقيقة جهل، وإلا لقادهم إلى صحة الفهم.

عندئذ لابد أن تكون النتيجة هى الانتقال من خطأ إلى خطأ ولا عجب عندئذ إذا جاء الحكم على الدعوة إلى الإسلام من غير المسلمين على أنها:

دعوة إلى إكراه الآخرين على اعتناقه.

دعوة إلى طمس هويات غير المسلمين بالقوة بفرض عبادات المسلمين وقوانينهم وقيمهم وحضارتهم على غيرهم، وكل ذلك ليس من الإسلام فى شىء بل منفى عنه لا بمنطق العقل اجتهاداً فحسب بل بمحكم النقل إيماناً صائباً واعتقاداً واجباً لقوله تعالى ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ وقوله ﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾ وبصيغة الاستنكار فى قوله تعالى ﴿ أفأنت تكره الناس ﴾ وبتأكيد المعبود جل وعلا على استحالة الهداية لمجرد حرص مخلوق عليها لمن يحبه ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ﴾ ولقوله تعالى ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ .

يؤيد ذلك من الناحية العملية الواقعية ما حدث فى دولة الإسلام الأولى التى كان على رأسها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم حيث كان فيها إلى جانب المسلمين نصارى ويهود ومنافقون معلومو النفاق ومشركون مجاهرون. لم تنقل لنا السير أن يد عمر علت رأس أحدهم لإرغامه على اعتناق الإسلام بل نقلت أن صبر الرسول على أذاهم وبره بهم كان سبباً فى هدايتهم واقتناعهم.

لقد عاش مواطنو تلك الدولة المسالمون سالمين آمنين رغم إقامتهم واستمرارهم على دياناتهم وكانوا يتمتعون بكامل حقوق المواطنة والإنسانية كحرية العقيدة والعبادة والعمل ولم يكرهوا على اعتناق أو ترك دين من الأديان. بل إن الإسلام لم يأمر بالقتال إلا عند الضرورة؛ ضرورة الدفاع عن النفس والحرية والمال والعرض أو ضرورة الرد على العدوان والظلم ومن ذلك الإخراج من الديار والأموال. أما فيما خلا ذلك فقد دعا الإسلام المسلمين إلى التعايش السلمى مع غيرهم بل دعاهم إلى الإحسان إليهم وربط ذلك بمحبة الله لمن يفعل أويتعامل بالإحسان إلى كل إنسان مسالم ومحبة الله هى قمة الإيمان. قال تعالى ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (الممتحنة : آية ٦٠) وبمقتضى هذا النص القرآنى ليس مباحاً فقط للمسلمين أن يسالموا من يسالمهم من أهل الملل الأخرى بل النص صريح فى الحض على إعطاء غير المسلمين من مال المسلمين العام أو الخاص براً بهم وإحساناً وتأليفاً لقلوبهم وفى ذات الوقت نهى القرآن فى نص آخر نهياً واضحاً عن الاعتداء حيث جاء ﴿ ولا تعتدوا إنَّ الله لا يحب المعتدين ﴾. وفى نص آخر حصر القرآن أسباب القتال فى الظلم حيث قال ﴿ لا عدوان إلا على الظالمين ﴾ وحتى عندما يبادر غير المسلمين بقتال المسلمين

أو يحاولون إخراجهم من ديارهم نجد أن القـرآن يحثهم على قبول السلام فقد قال المولى عز وجل ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ﴾ هذا حتى إذا كان المعتدون مظنة المخادعة ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾ .

إذن حرص المسلم على السلم عبادة لأنه طاعة لأمر الله تعالى . كان ذلك أيام كانت الدول دويلات إلا دولتين لم تشتهرا بالعدل ولم تتظاهرا باحترام الأديان وإكرام الإنسان إن لم تشتهرا بالظلم والإكراه والسخرة والعدوان والصلف والاستكبار كما فعل كسرى حين أصدر أوامره لعامله فى جنوب الجزيرة العربية ليرسل من يحضر له النبى الذى ظهر بمكة . لقد كانت القوة هى الشرعية وكان القوى آكل والضعيف مأكول على مستوى الأفراد أما النظام الاجتماعى فنظام طبقى يحتقر الإنسان الضعيف أو الفقير إلى درجة أن أباح للإقطاعى امتلاك الأرض ومن عليها من البشر ، أما رأس الدولة وقمة الهرم الذى يشتكى إليه المظلوم فلا سلطان لجهاز رقابى على سلطته ولا شراكة لجهاز تشريعى معه فيما يصدر من تشريعات ولا ما يقرر من قرارات بل وصل الحال درجة أن قال أحد الحكام «أنا الدولة» .

مجتمعات كتلك وحكام كأولئك نهى الإسلام المسلمين عن قتالهم إلا أن يبادروا هم بقتال المسلمين ودعا إلى التعايش السلمى معهم والبر بهم بل وقبول الصلح معهم حتى دعوا له واحترمهم الرسول صلى الله عليه وسلم كما هم عند أنفسهم وعند أقوامهم فخاطبهم بألقابهم حيث قال «إلى هرقل عظيم الروم والمقوقس عظيم القبط وكسرى ملك الفرس»[1] .

فمن أين جاء بعض المتحمسين باسم الإسلام بهذه الروح العدائية الهجومية حتى ألقوا فى روع المسلمين وغير المسلمين أن الدعوة إلى الإسلام تعنى الشروع فى إكراه ومسخ وسلخ الآخرين من هوياتهم وعقائدهم وعاداتهم هذا أو منعهم حقوقاً تقتضيها إنسانيتهم ومواطنتهم بمقتضى تشريع خالق الجميع .

---

(١) من رسائل الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إلى الملوك ص ٤١٤/ ٤١٩ - الرحيق المختوم - صفى الدين المباركفورى .

من هنا تركبت الأخطاء

■ من أخطاء الفهم للإسلام وأخطاء تجارب التطبيق ومن سقطات السلوك عند بعض المسلمين رعاة أو رعية حكاماً أو محكومين انطلق دعاة تحكيم الإسلام فى بعض الجماعات فزادوا الطين بلة وتنامى الفهم الخاطئ أو الظالم مع التجارب الناقصة فولد جنيناً خداجاً وأخطاء أكثر عدداً وأشد تعقيداً وخلفا هذا الحكم الظالم على الإسلام. وظلت الأخطاء تنمو وتتلقى غذاءها من ممارسات وتجارب جماعات من الإسلاميين حتى تبلورت التجربة فى جماعة من أظهر الجماعات الإسلامية فى هذا العصر وأعلاها صوتاً استطاعت أن تسطو على الحكم فى السودان فتقيم باسم الإسلام دولة جسدت الأخطاء والمخاطر فإذا بالذين كانوا ينتظرون نعيم دولة الإسلام يجدون أنفسهم فى جحيم متطاير الحمم.

لم يقف خطر هذه الدولة الدعية عند حدود البلد التى ابتليت بوجود هذه الجماعة فيها جغرافياً فاستغلت مناخ الحرية والديمقراطية لتزرع فى نفوس الناس الكراهية للديمقراطية تمهيداً للانقضاض عليها هذا مع مزايدتها فى النص على الدفاع عنها لا بالقانون فحسب بل بتضمينه فى صلب الدستور[1]. بينما هى فى نفس الوقت تحضر وتخطط حتى نفذت مخططها، بالاستيلاء على السلطة فى ليل بهيم فصادرت الحريات ووأدت الديمقراطية فعلت ذلك على حساب الحصانة الدبلوماسية والممارسة الديمقراطية وعلى حساب رصيد السودانيين من الاحترام والإكرام الذى اكتسبوه بحسن خلقهم وقويم سلوكهم عبر القرون حتى استقر خصوصية فى العلاقات مع الأشقاء والرفقاء واستثناءً فى المعاملات حيثما دعت الظروف والملابسات إلى تعميم التشدد تفتيشاً عن محظورات أو تدقيقاً على الهويات. يشهد بذلك المهاجرون والمغتربون والمسافرون من أهل السودان حيثما حلوا وتشهد بذلك الأمم التى عاشرهم السودانيون ضيوفاً أو عاشرتهم مضيفين فأقرت بأنهم شعب سمح الأخلاق كريم الخلال، ودود، مسالم ذو شرف وعفة وأمانة.

---

(١) د. حسن الترابى - مناظرة تلفزيونية بتاريخ ٢٨/ ٧/ ١٩٨٦م السودان.

لم يكن ذلك مجرد تقاليد إقليمية أو عادات قبلية إنما كان أثراً فعلياً وعملياً لما ورثوه ولقنوه من تعاليم الإسلام وما نشأوا عليه من خلق الإسلام وتربيته وتوجيهاته فى سماحة المعاملات وصدق وعفة وكرم ومروءة وشجاعة واحترام لحقوق الآخرين المعنوية والمادية وحرص على أداء الواجبات التى بدونها لا تتم الرجولة فهى من مميزات ومعالم الشخصية السودانية. ولكل ذلك أدلته وشواهده من نصوص القرآن وصحيح السنة ومأثور السير والروايات.

ليس مقبولاً ولا معقولاً من دهاقنة السياسة وحملة الدرجات العلمية العليا ودعاة الموضوعية أن يقعوا فى أسر الفهم الخاطئ للفظ مع وضوح المعنى والمضمون ناهيك بأن يكتفوا بالتقويم الانطباعى لدين تخفق به قلوب ما يزيد عن مليار من البشر وما يزال يتوالى اهتداء العلماء والفلاسفة به وإليه بين كل حين وآخر ليس تحت تأثير ترغيب ولا ترهيب ولكن تحت ضغط الحقائق الموضوعية العقلية والنتائج العملية المعملية، رغم جهود التكريه والتشويه وعوامل الصراع الجغرافى والحضارى وربما العرقى.

جبهويون من حيث لا يدرون

■ إن الذين يربطون ما بين جماعة الترابى «الجبهة القومية الإسلامية» والإسلام فيحاسبون الإسلام بتجربتها ويعادونه بسببها، هم أنفسهم جبهويون من حيث لا يدرون، أو يريدون. نعم وإن جهروا بالعداء لها لأنهم بذلك يعينونها على تضليل المسلمين وغير المسلمين، فبعض المسلمين يكفيهم للتعاطف معها أن أعداءها يعادونها لأنها تنادى بالإسلام وغير المسلمين قد يقبلون هذا التصنيف فينتمون للإسلام أو لا ينتمون بحسب تقويمهم لهذه الجماعة. وهى لا تطمع فى أكثر من الربط الأسمى بينها وبين الإسلام لأن ذلك كاف لتضليل المسلمين خارج السودان أما أهل السودان فقد عرفوا حقيقتها وبعدها عن الإسلام لما رأوا وذاقوا من سياستها وممارسات عضويتها.

إن الإصرار على ربط اسم الجبهة وتجربتها بالإسلام يدر عليها عطفاً وتأييداً شعبياً وسياسياً ودبلوماسياً إن لم يكن داخل السودان فخارجه. ويدر عليها عوناً مادياً سخياً بحجة نصرة دولة الإسلام وتجهيز جيش العسرة. ومن أمثلة ذلك العون المجانى الكبير

والإصرار على وصف جماعة الترابى (الجبهة) بأنها تصر على تطبيق الشريعة الإسلامية وأنها نموذج الإسلام السياسى فهذه خدمة إعلامية ضخمة تفوق خدمة إعلامها العملاق ، خاصة عندما تأتى من الخصوم والأعداء «والفضل ما شهدت به الأعداء» وما ذلك إلا لعدم تحرى الدقة فى الصياغة أو عدم توخى الحقيقة . . هذا إذا لم يكن الأمر مقصوداً لذاته بهدف النيل من الإسلام بسيئات الجبهة وأمثالها من الجماعات والتنظيمات المتطرفة أو المتحمسة بلا وعى كما يقول السيد الصادق المهدى أو خدمتها عن عمد وقصد .

إن عدم التفريق الدقيق ما بين حقائق ومقاصد الجبهة القومية الترابية وما بين حقائق ومقاصد الإسلام يقدم للجبهة دعماً أيّما دعم خاصة عندما يصدر عمن هم مظنة العداء للإسلام .

إن الجبهة[1] فى داخلها لتصفق طرباً ورضى عن هؤلاء الذين يربطون بينها وبين الإسلام ، فهى بلسان الحال تلهج بالشكر لهم على ما يقدمونه لها من خدمة وإن كانت مصلحتها فى وصفهم بالأعداء . ولعلها لم يغضبها أحد كما أغضبها التصنيف العلمى الدقيق المنصف الذى أعلنته مرة منظمة العفو الدولية حينما وصفت ما تدعو إليه الجبهة الإسلامية السودانية وما تتبناه من نهج بأنه نهج إحدى المدارس الإسلامية الفكرية الذى تقابله مدرسة فكرية أخرى تدعو إلى الإسلام المبرأ من الاستبداد والإرهاب والظلم . وإنى أخالها استشاطت غضباً وحنقاً عندما دعا الرئيس الأمريكى بيل كلنتون فى شرم الشيخ (بمصر) عند حضوره مؤتمر صانعى السلام، دعا إلى عدم الربط بين الإرهاب والإسلام لأن ذلك يفقدها مؤازرة المسلمين .

ولكن المصيبة أن بعض مواطنى السودان من اليساريين والمسيحيين وغيرهم يصرون على اعتبار فشل التجربة الجبهوية فشلاً للتجربة الإسلامية متجاهلين الأطروحات الإسلامية الأخرى التى تتبناها أحزاب وجماعات معروفة بل منها طرح نهج الصحوة الذى خاض به حزب الأمة انتخابات ما بعد انتفاضة ابريل ١٩٨٥م فنال ٤٠٪ من أصوات الناخبين . رغم أنهم يذكرون ولا ينكرون أن ذلك الطرح نهض بديلاً مقاوماً لنهج التجزئة والتطرف والهوس الذى تبنته جبهة الترابى وجندت لنصرته طاقات كوادرها خطابةً وكتابةً وإفتاءً وقضاءً وتنفيذاً.

---

(١) الجبهة هنا تعنى جماعة الترابى .

إنها لمصيبة أن يربط متعلمون سياسيون ناشطون سودانيون معاصرون ما بين تجربة الجبهة وما بين الإسلام إلى حد أن يجعلوها نموذجاً للإسلام، إنها مصيبة لأنهم يريدون بذلك أن يلغوا اجتهاد وجهاد وميراث مسلمي أهل السودان في الاعتدال في التدين، فيدفعوهم دفعاً إلى التطرف دفاعاً عن بيضة الدين الذي طالما نادوا به وهتفوا بأنه دين ودولة.. وأخشى أن تكون المصيبة عن غرض وسوء استغلال للموقف فإنهم بذلك يظلمون الإسلام الذي يقرون أن الجبهة استغلته وحكمت زوراً باسمه.. ولكم وفقت أحزاب المعارضة السودانية حينما وصفت العلاقة بين الجبهة والإسلام أنها استغلته وزوّرته ذلك لأن الإسلام حقيقة بريء مما ترتكبه جماعة الترابي باسمه من ظلم وإذلال للعباد وتدمير وخراب للبلاد وتشويه لمفاهيم الإسلام وقيمه الصحيحة التي يدعو لها ويبشر بها المجددون والمفكرون المسلمون الصحويون في السودان وغيره. ولقد وفق مؤتمر أسمرا للمعارضة السودانية (١٩٩٥م) حينما نص على كفالة حرية الدعوة فقفل بذلك باباً من أبواب الاحتراب وقضى على سبب من أسباب القتال ومهّد بذلك لنقلة حضارية تحقق جواً خالياً من الحساسية حيث جاء في الفقرة «٤» من مقررات مؤتمر القضايا المصيرية «تعترف الدولة وتحترم تعدد الأديان وكريم المعتقدات وتلزم نفسها بالعمل على تحقيق التعايش السلمي والمساواة والتسامح بين الأديان وكريم المعتقدات وتسمح بحرية الدعوة السلمية للأديان وتمنع الإكراه أو أي فعل أو إجراء يحض على إثارة النعرات الدينية والكراهية العنصرية في أي مكان أو منبر أو موقع في السودان».

أقول إن من يعرف الإسلام معرفة حقيقية يعرف أن كل ما ذكر في الفقرة الرابعة المذكورة هو من صميم الإسلام ومن آكد مبادئه السياسية وأهدافه الاجتماعية التي يصون بها مجتمعه ويبني عليها علاقاته فهي فقرة إسلامية مائة بالمائة وإن وفق الله للالتزام بها وتطبيقها فسيكون عائد ذلك خيراً عظيماً إن شاء الله. أما الفقرة الخامسة فقد جاء فيها ما يلي «يلتزم التجمع بصيانة كرامة المرأة ويؤكد على دورها في الحركة الوطنية ويعترف لها بالحقوق والواجبات المضمنة في المواثيق والعهود الدولية بما لا يتعارض مع الأديان».

ومهما تخوّف البعض أو تحفظ على المواثيق والعهود الدولية فإن عبارة «بما لا يتعارض مع الأديان» التي ختمت بها الفقرة الخاصة بالمرأة قد أزالت كل تخوف أو تحفّظ وإن كنت لا أظن أن المقررّين قصدوا أن يخصوا المرأة بهذه العبارة دون الرجال وربما رأوا أنّ ذلك من

باب أولى بحكم دعوتهم إلى المساواة واعترافهم واحترامهم بتعدد الأديان وكريم المعتقدات ، وإن كان كسب المرأة فى تفصيل وتحديد حقوقها المتفق عليها ، لأن بعض الأديان والأعراف الوضعية تظلمها إلى حد الطعن فى إنسانيتها وإهدار كرامتها(*) .

ولكن المصيبة أن البعض يريد أن يحكم فى الناس فهمه الخاص ويستخدم بعض النصوص لنصرة أطروحاته السياسية القائمة أصلاً على استبعاد الدين كلياً أو جزئياً، إن الذين يريدون أن يتجاوزوا مدلولات الكلمات بل يريدون إفراغها من مدلولاتها وإعادة شحنها بأمانيهم وأهوائهم قد نسوا أنهم بذلك يقعون فى تناقض ستحسدهم عليه جماعة الترابى لأن استبعاد الأديان وكريم المعتقدات غير ممكن عملياً وغير صحيح سياسياً ممن أقر مبادئ كالمساواة والحرية . وليس منطقياً من ذى عقلٍ أن يقرر التزامه باحترام الأديان ثم يتصرف فيها بالحذف والتعطيل . إن الذى يفعل ذلك يريد أن يلزم الناس بدين من اختياره لا من وحى الإله . وخاصة بالنسبة للإسلام . ولست أدرى كيف يكون مثل هذا الفهم بديلاً لنظام جماعة الترابى ولا أجد له تصنيفاً غير أنه دعوة إلى قهر جديد ومحاولة فرض دكتاتورية أقلية أخرى ، وإن اختلفت ثيابها أو بشرتها أو لسانها . فحرية الإنسان فى اعتناق الإسلام لا تنفصم ولا تنفصل عن حرية الاحتكام إلى مقتضياته ، إذ ليس الإسلام بترانيم ولا أناشيد ولكنه نظام حياة شامل وكامل لا يقبل التجزئة وإلا عرض المجزئ نفسه إلى وعيد الله تعالى فى قوله ﴿ ... أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة : آية ٨٥) .

(*) ورد فى هذه من ١٣ من تقرير عن حقوق الإنسان فى السودان فى عام ١٩٩٦م صادر عن الولايات المتحدة الأمريكية :

There were no reports that "hudud" punishments, other than lashings, were carried out by the courts in government controlled areas of the south Fear of the imposition of sharia law remained a key issue in the rebellision.

هذا من الولايات المتحدة الأمريكية وعن حكم الإنقاذ (١٩٨٩م) الذى يعد من أسوأ التجارب التى تمت باسم الإسلام.

ليس لغير المسلمين مفقود يطلبونه

■ إذا التقى مسلم وغير مسلم فى جوار أو ضمتهما دولة ملتزمة بصحيح الإسلام فلن يضطر غير المسلم إلى المطالبة بحق ، لأن حقوقه كلها مقررة سلفاً فى صلب الدين . . ولا يكتمل دين المسلم إلا بتوفير حقوق غير المسلم وصونها ، فذلك ما جاءت به النصوص فى الكتاب والسنة وما أثبتته التجربة ، حيثما قامت دولة إسلامية حتى تلك التى ابتعدت عن الإسلام أو خالفت أحكامه فى شئون المسلمين أنفسهم . ومن تلك الحقوق التى أثبتها الإسلام لكل الناس وكل إنسان بصرف النظر عن دينه أو لونه أو عرقه الحقوق التالية :

* **الحرية** : فى الرأى والاعتقاد والعبادة والعمل والملك والانتماء . دلت على ذلك نصوص مثل قول الله تعالى ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ وقوله جل وعلا ﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾ .

* **المساواة** : فمن حيث الأصل ﴿ كلكم لآدم وآدم من تراب ﴾ ومن حيث العمل ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ ومن حيث الدين ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ ومن حيث الجنس « النساء شقائق الرجال » .

* **العدل** : سمة الحكم الواضحة فى الإسلام وواجب الحاكم وشرط صحة حكمه . قال تعالى ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ . وقال : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ﴾ وقال جل من قائل ﴿ ولا يجرمنكم شنئانُ قومٍ على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ .

إن العدل فى الإسلام هو أن ينصف كل مظلوم وضعيف حتى ليقف أمير المؤمنين جنباً إلى جنب مع خصمه مسلماً كان أو غير مسلم أمام القاضى ويرضى بالحكم وينفذه ، وإن جاء خطأ لصالح خصمه مع علمه أنه صاحب الحق كما جاء فى قصة درع على بن أبى طالب كرم الله وجهه التى نازعه فيها اليهودى وادعى ملكيتها ، فتخاصما إلى القاضى الذى حكم بها لليهودى فلما رأى اليهودى قاضى الإسلام يحكم له بالدرع حسب مقتضى القضية والإثبات ونظر إلى أمير المؤمنين وصاحب الدرع يرضى الحكم وينفذه أيقن اليهودى أن هذا الدين حق وأعلن إسلامه .

لقد اعتبر الإسلام العدل هدف كل الرسالات إذ قال الله تعالى ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ .

من قواعد الحكم في الإسلام أن جعل الأمر أمر الناس وليس أمر القيصر . . فقرر في القرآن الكريم من صفات المسلمين ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ ليجعل بذلك المشاركة والشورى في الأمر حق المحكومين كما جعلها واجب الحاكم حين قال تعالى لنبيه المعصوم صلى الله عليه وسلم ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ . وجعل مبتدأ الأمر بين الحاكم والمواطنين البيعة أي عهد يقطعه المواطنون للحاكم بناءً على برنامج يتضمنه نص البيعة . . ومن ذلك ما رواه البخاري عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «تعالوا بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله، فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه»[1] .

ولعلنا نلاحظ بوضوح في هذا النص ما يلي :

١ - الابتداء بالعلاقة بين العبد وربه وهي أساس الإسلام .

٢ - تقديم وتفضيل جهاد النفس ومعالجة عيوبها .

٣ - النص على الانتهاء عن البهتان والافتراء حماية للفرد والمجتمع .

٤ - ربط الطاعة للحاكم بأمره بالمعروف .

٥ - بيان حرص الإسلام على ستر المستور صوناً لأعراض الناس وسمعتهم عن أن تهتك مما ينسجم مع تحريم التجسس ومنع تتبع عورات الناس ، ويبرئ الإسلام من اجتراء البعض باسم الإسلام على أعراض الناس والتسبب في إيقاع العقاب بهم بمجرد الشبهات مع أن الإسلام جعل الشبهة سبباً لدرء العقوبة كما في قول رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم «ادرءوا الحدود بالشبهات» . وجعل الاتهام بلا إثبات جريمة حدية .

---

(١) صفي الدين المباركفوري - الرحيق المختوم ص ١٧٠ .

هذا فى ابتداء الأمر أما فى استمراره فالنصيحة هى واجب المواطنين مع حاكمهم ، كما هى حق كل مسلم على أخيه المسلم . . قال صلى الله عليه وسلم « الدين النصيحة ، قلنا لمن ؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » . وجاء فى بعض الصيغ « نعاهدك على السمع والطاعة فى المنشط والمكره والنصيحة لك » وفى القرآن الكريم سورة جعلت الخسران خط كل إنسان لم يتصف بصفات أربع : ﴿ والعصر إنَّ الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ .

لذلك حرص السلف الصالح على النصيحة والتواصى بالحق فقال أبو بكر «أطيعونى ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم» . وقال عمر بن الخطاب «فإن أخطأت فقومونى» فقال أحدهم «نقومك بسيوفنا» فحمد الله أن فى رعيته من يقول ذلك . . وقال حاضاً الرعية على قول الحق والتواصى به والقيام بواجب النصيحة «لا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا (الحكام) إن لم نسمعها» .

إن ما يجده المواطن من حق فى الشورى والمشاركة فى شئون الحكم فى ظل دولة الإسلام أعمق وأقوى وأصدق مما يجده فى أرقى الأنظمة الديمقراطية الوضعية لأن الإسلام لا يتيح الفرصة للرأى الآخر فحسب بل يبحث عنه ويصر على سماعه فى أمان وضمان من أن يتعرض قائله إلى ضغط أو إغراء . فهكذا طبقها رسول الله صلى الله وسلم . أما الخلاف الذى يدور حول المصطلح فإن قبل المسلمون بمصطلح الديمقراطية مرادفاً أو بديلاً لمصطلح الشورى خروجاً من الخلاف فليس فى ذلك خروجاً عن الدين أو مخالفة بل الجوهر المطلوب ، والهدف المقصود يتحقق بأن يحسن المنادون بأى من المصطلحين تطبيقه بصدق وإخلاص فعند ذلك تصير الديمقراطية هى الشورى نفسها . وإن لم يصل الناس ذلك المستوى وطبقت الديمقراطية بأساليبها الممارسة من إغراء واستعطاف ودعاية فقد طبقوا استطاعة المجتمع الحاضر فى فهم أو احتمال مقاصد المصطلح ، ورضوا بالأقل الأدنى ولا بأس بذلك ريثما يرقى المجتمع إلى مستوى نهج الشورى الحقيقية فهماً ونضجاً وتقى ، وقدرة على التطبيق .

إن الشورى أو الديمقراطية كلاهما يعنى الاعتراف بالرأى الآخر أى التعددية فى الرأى ، وبالتالى قبول تعدد وسائل ومواثيق تطبيق وممارسة الآراء والأفكار ، أى قبول تعدد التنظيمات والأحزاب . . وقد مهد الإسلام كما يقول الأستاذ فهمى هويدى للتعددية

«بأن جعل احترام الآخر ومساواته والاعتراف بحقه فى العدل من متطلبات التسليم بالمشيئة الإلهية واحترام سنن الله فى الكون»[1].

بؤرة الاختلاف

■ بمقتضى حق حرية الرأى والعقيدة والعبادة فليس من حق غير المسلمين أن يكرهوا المسلمين على ترك الإسلام أو يرغموهم على استبعاد بعضه والاجتزاء ببعض ، طالما أن ذلك البعض فى رأى المسلمين واعتقادهم جزء من الإسلام وبالتالى ليس من حق غير المسلمين أن يمنعوا المسلمين من أن يعاقبوا المجرم منهم (أى من المسلمين أنفسهم) بالعقوبات التى يعتقدون أنها جزء من الإسلام لأنه أمرهم بها ، فذلك يتنافى مع الاعتراف بالأديان ويتنافى مع حق الحرية فى الاعتقاد والعبادة ، ويتعارض مع حق المساواة بين الناس بغض النظر عن اختلاف اعتقاداتهم وأديانهم . . ولا مجال مع ذلك التناقض للحديث عن حق العدل ولا الجدل حول الديمقراطية . لأن من يؤمن بالديمقراطية يلزمه بداهة ربطها بالحرية والعدل والمساواة ، ومن يدعى الموضوعية والوعى يلزمه أن يتحاشى التناقض بين الشعارات وأن يتذكر أن أبرز عيوب جماعة الترابى التى حكمت باسم الإسلام وباسم العلم وباسم الحضارة والتوجه الحضارى أنها كانت متناقضة بين ما تقول وما تفعل ، وتلك مذمة ونقيصة ليس فى رأى الإسلام الذى أنزل فيها قرآناً يقول ﴿ لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ ولكن هى نقيصة ومذمة حتى برأى الجاهليين حيث قال شاعرهم :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

فالتناقض بين القول والفعل عار بكل المقاييس التى تحترمها العقول السوية ، ولن ينصلح حال الناس بمجرد استبدال حاكم بحاكم أو نظام بنظام أو مصطلح بمصطلح ، وإنما ينصلح الحال باختيار المنهج الصحيح القويم وفهمه فهماً صحيحاً وسليماً وتطبيقه تطبيقاً صحيحاً ودقيقاً وسليماً من الهوى والغرض ومن الميل والانحراف ، بل تطبيقه شاملاً يهم

---

(١) فهمى هويدى – جريدة الأهرام – عدد بتاريخ ١٩٩٦م.

جميع أفراد المجتمع وجماعاته . . وبذلك يصح للمسلمين دينهم ويترك لغيرهم خيارهم فيحس كل مواطن بأن كرامته مصونة وحقوقه محفوظة فيحدث الاطمئنان والرضى والاستقرار النفسى الشخصى والاجتماعى ، ويسلم المجتمع من كوابح البناء والتقدم ومنكرات السلام والاستقرار وتلك هى أرض التنمية الاقتصادية والسعادة الحقة .

الإســـــلام
ذلك الدين المظلوم فى محكمة السياسة المعاصرة

■ كانت الحروب الصليبية قد حاولت الإجهاز على الإسلام فغزته فى عقر داره واحتلت بعض أرضه بعد أن طردته من حدودها . وقضت على دولته ، دولة العلم والحضارة فى الأندلس . . وبقى الحال كذلك السنين الطوال حتى قيض الله للإسلام صلاح الدين الأيوبى فحرر ما حرر من غير أن تنتهى المعركة ، لأن الإسلام لم يمت فى قلوب المسلمين ولا فى قلوب ذوى الفطرة السليمة والعقول السليمة من الباحثين عن الحقيقة حتى من غير المسلمين . والحرب لم تنته لأن خصوم الإسلام اكتشفوا مبكراً جوهر الإسلام وسر قوته الذى هو إخلاص الاعتقاد فى أن الدنيا مطية الآخرة وأن عمارتها عبادة ولكنها وسيلة وليس غاية . وأن متاعها مباح ولكنه ليس كل المتاع . هذه حقائق لقنها رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلمين نصوصاً بينها لهم بالعمل فسمعوا ووعوا واقتنعوا ولكنهم نسوا . وكثر عددهم ولكن أكثرهم من الناسين والغافلين غثاء كغثاء السيل . وهب فيهم أهل الذكر يذكرونهم ونهض مفكروهم ينبهونهم ولكن عز فى الناس من يسمع وعز فى من يسمع من يعى وعز فى من يعى من يعمل وعز فى من يعمل من يتقن وعز فى من يتقن من يخلص النية فضاع كثير من عملهم هباء . . حتى الجهاد أخطأوا فهمه فأخطأوا ميدانه واخطأوا هدفه فانعكس أثره سلباً على المسلمين لأنه صار حرباً على المسلمين باسم الإسلام والمسلمين ، ولأنه صار فى واقعه استعداءً لغير المسلمين على الإسلام . ولأنه صار فى واقعه تزويداً لمحاربى الإسلام بأقوى الأسلحة المضادة للإسلام وهى أن يفهم بأنه غوغائية وهمجية وتصرف عشوائى لا يفرق بين البرىء والمجرم بل يعاقب عمداً البرىء بجريرة المجرم ، ضارباً عرض الحائط بنص واضح الدلالة يقول ﴿ ولا تزر وازرة وزر

أخرى ﴾ . . وأعطوهم سلاحاً مضاداً للإسلام هو أن يفهم بأنه دين تواكل وبطالة ، وأنه دين حقد وظلم ونزوات وشهوات جامحة نحو السلطة والثروة لذاتهما . وأنه دين جهل ودجل وانكفاء .

وليس الإسلام فى حقيقته إلا ضد ذلك جميعاً . . تشهد بذلك سيرة رسوله صلى الله عليه وسلم وسيرة صحابته فى خاصة حياتهم وعامها ، فى أنفسهم وأسرهم وجماعتهم ، وفى دولتهم مع جيرانهم وخصومهم قضاءاً ومقاضاة عدلاً وإحساناً يطفىء نار الحقد ويفتح الطريق للهداية .

كما جاء فى قصة اليهودى جار النبى صلى الله عليه وسلم ، واليهودى وسيف على كرم الله وجهه ، واليهودى الهرم الذى لقيه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وفى بند المؤلفة قلوبهم فى مصارف الزكاة .

وليس الأمر وقفاً على شهادات السير والآثار فحسب وهى صادقة ومصدقة فى عرف العلم الحديث ، لكن شهادات المعاصرين من غير المسلمين ساسة وفلاسفة وأساتذة وأطباء . وهؤلاء قمم العلم وصناع الحضارة وأجتزئ من شهاداتهم بالإشارة إلى بعضها لأبين أن الحرب بين الدين والسياسة وبين الدين والحضارة حرب نشأت فى غير ديار الإسلام ومن غير المسلمين وأوضح أن الإسلام والمسلمين أبرياء من تلك الحرب :

أين ومتى ولماذا ظهرت الدعوة لفصل الدين عن السياسة ؟

■ فى أوروبا وفيما يعرف تاريخياً بالعصور الوسطى كانت الكنيسة هى المهيمنة على الحياة والموجهة للسياسة والمقررة لمجالات البحث والتفكير إباحة وتحريماً . ولأن رجال الكنيسة فى ذلك العصر قد حاولوا الإمساك بزمام كل الأمور فأصدروا أحكاماً تحرم البحث العلمى وتبطل بعض نتائجه العلمية المحسوسة التى أثبتتها التجربة والملاحظة ، لذلك ناصبها العلماء العداء وردوا عليها بإنكار كل ما هو غيبى غير مشاهد وكل ما هو غير محسوس . أى أنهم نقضوا أركان الدين الأساسية فأنكروا البحث والحساب وأنكروا بذلك الجنة والنار بل أنكر بعضهم وجود الله جل وعلا .

الإسلام والعلم

■ إن الأمر فى الإسلام على نقيض ذلك وهذا ما يؤكده ما جاء فى أساسيه ؛ الكتاب الذى هو القرآن الكريم والسنة التى هى ما صح عن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير (موافقته على ما فعله أو قاله غيره أمامه).

أما القرآن الكريم فأول كلمة نزلت منه على محمد صلى الله عليه وسلم هى «اقرأ» رددها عليه جبريل أمين الوحى، ثم واصل تالياً الآيات ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾.

فالأمر بالقراءة هنا صريح وإيراد كلمة (خلق) مما يفهم منه الدعوة إلى التفكير فيما خلق الخالق فتلك من أوضح العلاقات.والروابط بين كلمتى «اقرأ وخلق». والأخبار عن خلق الإنسان من علق فيه الإشارة إلى التفكير والاعتبار ودراسة الأطوار بدل الوقوف مع نهايات المخلوقات، أى الدعوة إلى قراءة أطوار هذا الإنسان الكامل الذى بدأ من علقة، ثم جاء ذكر القلم أبرز رموز العلم وأهم أدواته مع ربط ذلك بأن ذلك من عند الله وبفعله وفضله، ولحكمة أو حكم ندرك بعضها من قوله ﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ أنه ما بحول الإنسان ولا بإرادته تعلم ما علم ولا تعلم ما لم يعلم.. وفى غير هذه الآيات أمر الله الإنسان بأن لا يكتفى بما يبلغه من علم فقال: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾، ﴿ولا يحيطون بشىء من علمه﴾، ولذلك أمر الله الإنسان أن يدعو ﴿وقل رب زدنى علما﴾، وبين أن العلم هو الذى سيهدى الإنسان إلى الحقيقة، إلى الحق، إلى معرفة الله وطاعته وخشيته فقال: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾.

وفى السنة شواهد كثيرة فقد كان تعليم واحد من المسلمين أحد وسائل افتداء الأسير الكافر لنفسه عقب أول غزوة فى الإسلام، بدر الكبرى. وفى حث المسلمين على العلم جاء ما يدل على أن تلقى العلم وطلبه غير مربوط ولا مقيد بعمر ولكنه «من المهد إلى اللحد» وأنه غير مقيد بالمكان «اطلبوا العلم ولو فى الصين»، وأنه غير موقوف على جنس «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة».

إذن فليس هنالك حرب بين الإسلام والعلم بل العلم أحد فرائض الإسلام . . والتفكير أحد فرائض الإسلام ، والتكليف بالعبادات والأعمال والمهام الدينية والدنيوية أحد أهم مؤهلاته العقل الحاضر السليم وإلا رفع القلم وامتنع التكليف بالعمل أو الحساب عليه .

شهادات معاصرة لصالح الإسلام

■ إن العصر الحديث يقوم على العلم الذى هو ثمرة التفكير وأعمال العقول ، والإسلام يوافقهم فى ذلك ويقدم العقل شاهد دفاع عنه فى هذه المحكمة .

وهذه أمثلة لشهادات من أناس كانوا غير مسلمين تدفع عن الإسلام ما يثار حوله من شبهات واتهامات :

•• فى الطب مثلاً :

قال القرآن الكريم عن عسل النحل ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ .

وتصديقاً لذلك وصف الرسول الكريم دواء لداء الاستبطان أى الاستسقاء ، ولم يتراجع أمام إفادات أخ المريض بأن ذاك الدواء لم يعالج بطن أخيه بل قال له الرسول صلى الله عليه وسلم «صدق الله وكذبت بطن أخيك» وقد كان فعلاً .

وفى السنة أيضاً أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : «المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فاعلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه» . وقد انتهى البحث العلمى فى الطب الحديث إلى صدق هذا الطب النبوى . ومن أراد المزيد من الأمثلة فعليه أن يراجع كتاب الطب النبوى .

وعن بعض أنواع الطعام والشراب وردت نصوص تدبرها بعض العلماء فانتهوا إلى ما أشارت إليه ، كتحريم لحم الخنزير والمخدرات من خمر ودخان وكوكايين ، ولم يبق إلا أن يقولوا إنها خبائث لأنها تضر بالصحة وتحطم العقل وتفسد حياة صاحبها ومن حوله ومجتمعه كله .

وعن أسرار الكون والتكوين وردت إشارات تنبه الإنسان للتفكر في خلق السموات والأرض وفي خلقه هو نفسه في ظلمات ثلاث ، وفي إمكانية النفاذ من أقطار السموات والأرض بسلطان العلم فصدّق ذلك العلم الحديث ، ومن أراد من ذلك المزيد فليراجع أبحاث الإعجاز العلمي في القرآن لعبد العزيز الزانداني والدكتور مصطفى محمود مثلاً .

•• الإسلام ومسألة الجنس :

بعض المارقين على الأديان نادوا بإباحة الجنس ، وفي بعض الأديان غير الإسلام ابتدعت الرهبانية ليحملوا الإنسان فوق طاقته ويكبتوا بعض قوته ، فقصروا الزواج على الزوجة الواحدة وجعلوا من قوة الدين الامتناع عن الزواج انقطاعاً للعبادة وعابوا على الإسلام إباحته التعدد (مثنى وثلاث ورباع) ودعوته إلى التكاثر ومنعه الرهبانية «لا رهبانية في الإسلام» . . وجاء في السنة أن ثلاثة جاءوا يسألون عن عبادة الرسول صلى الله عليه وسلم فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها «أي استقلوها أو حسبوها قليلة» وقالوا ربما ذلك لأن الرسول غفر له ما تقدم وما تأخر ، أما هم فقد قال أحدهم إنه يصلي ولا ينام وقال الثاني إنه يصوم ولا يفطر وقال الآخر «أما أنا فإني اعتزل النساء» فلما علم الرسول صلى الله عليه وسلم بأمرهم قال ناهياً لهم مانعاً من الاقتداء بهم «أما أنا فأقوم وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء . . من رغب عن سنتي فليس مني» .

فأيها حالفه الصواب وأيها جانبه التوفيق؟ .

أما دعاة الإباحية فدونهم آثارها السلبية على الفرد والمجتمع ومن آخرها مرض الايدز . . أما الأديان فدين الله كله حق ولكن بعض المتدينين فباسم الدين يضعون على اجتهاداتهم قدسية الدين وفي ذلك خطر عظيم . ها هي أخبار بعض القديسين والقساوسة والراهبات تتحدث عن العلاقات الجنسية المحرمة والحمل الحرام وها هو الغرب الذي حرم تعدد الزوجات في العلن أباح تعدد العشيقات في السر ، في ذات الوقت مايزال يعتبر هذه العلاقات السرية رذائل وفضائح كم فقد بسببها الوزراء مواقعهم السياسية ووجهاتهم الاجتماعية .

أما الإسلام فقد أعطى كل إنسان جهازاً ذاتياً يعرف به الحق من الباطل فقال «الإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس» .

لقد نظم الإسلام الحياة معترفاً بحاجات الإنسان وتجاوب معها لا بالمنع ولا بالإطلاق، ولكن بالاعتدال والتوازن والتنظيم . . أما من حاولوا الحياة بالمنع فقد أهلكوها ومن حاولوها بالإباحة والإشاعة والإطلاق فقد أفسدوها .

إن من حرموا الزواج طلبوا المستحيل من كل سوى. فخالفوا الحكمة القائلة : «إذا أردت أن تطاع مر بما يستطاع». ومن حرموا تعدد الزوجات حرموا بعض الرجال جزءاً من حقوقهم وحاولوا كبت جزء من قدراتهم ورغباتهم فنكدوا عليهم حياتهم إن صبروا وأوقعوهم فى الخطيئة إن التمسوا إشباع رغباتهم ، خارج إطار المباح فى السر أو فى العلن. ومن حرموا الطلاق فقد أكرهوا المضطر إلى الطلاق على ما لا يطيق فعرضوه لأن ينكد على زوجه وعلى نفسه إن حاول المعايشة على مضض خضوعاً لقانونهم ، أما بديله الآخر فهو التمرد سراً بالخطيئة أو علناً بالمجاهرة أو حتى الخروج من الدين نفسه . .

أما الإسلام فقد وازن بين هذه الأحوال ؛ فأمر بالزواج وبغّض الطلاق ولكنه أباحه عند الضرورات ليفتح أبواب السعادة الخاصة والعامة، السرية والعلنية، ويقفل أبواب الفساد الخاصة والعامة والسرية والعلنية . ولقد شاهدت «فيلماً» مأساوياً سبب مآسيه تحريم المجتمع الغربى للتعدد والطلاق معاً، هو فيلم « The Bold and the Beautiful » وعلاج كل تلك المآسى فى الإسلام سهل ويسير يتمثل فى إباحة التعدد والطلاق عند الضرورة .

إن الإسلام هو دين الفطرة السليمة ، ولذلك فإن موقفه الرافض لإطلاق الشهوة الجنسية وفوضى ممارستها مع المثيل أو فى غير المحل أو مع غير الزوج لم يقف عند حد اعتبارها رذائل وقبائح وفضائح كما هى عند كل ذى فطرة سليمة ، ولكنه زاد بأن منعها بقوة الأمر الدينى وقفل الطرق المؤدية إليها وحدد عقوبتها حين ثبوتها .

وقد جاء العصر الحديث ليثبت بالبحث الميدانى والفحص المعملى أن الحق مع الإسلام حين شدد النهى والعقوبة . . فهذه الأمراض التى أفرزتها الإباحة وفوضى الممارسات الجنسية وعلى رأسها الايدز من الشواهد العصرية على خطر الإباحية وضرر إطلاق الحرية الجنسية ، وهى بذلك شواهد عصرية على صحة المنهج الإسلامى بقوة حجة التجربة العملية وليست فقط بقوة منطق النظرية وصحة النصوص سنداً ومتناً وصراحة ووضوحاً فى المعنى والدلالة .

وبالإمكان الإتيان بأدلة وبراهين فى المرافعة عن الإسلام فى كل المجالات لإثبات أن الإسلام عالج حاجات الإنسان كلها بحكمة الخالق ثم بإعمال العقل استصحاباً وإسقاطاً بلا إفراط ولا تفريط دون انكفاء متحجر أو انفلات مايع . وعندما أقول حاجات الإنسان كلها أعنى بذلك فيما أعنى حاجاته الفنية والعاطفية والاقتصادية والفردية والأسرية والاجتماعية وحاجاته الجنسية وحاجاته المعنوية والمادية والبدنية والروحية .

•• ﴿ إنما يخش الله من عباده العلماء ﴾ :

ومن خارج بيئة الإسلام الجغرافية وبعيداً عن أثر الوراثة والتراث بل ومن بيئات العداوة هؤلاء علماء قادتهم عقولهم وأبحاثهم عن الحقيقة فوجدوها فى الإسلام، لقد وجدوا فيه ما افتقدوا من غيره فكان سبباً مباشراً فى هدايتهم جزئياً أو كلياً نستعرض منهم :

١ - **كارليل** : وهو كاتب إنجليزى، أحب البطولة وألف كتاباً بعنوان «الأبطال» أفرد فيه فصلاً عن رسول الإسلام حذر فيه من تصديق ما يشاع عن الإسلام من أكاذيب وما يذاع عن نبيه من أباطيل وتعديات . . بعد ذلك تساءل :

(أ) هل يعقل أن تكون هذه الرسالة التى عاشت عليها تلك الملايين أكذوبة أو خديعة؟

(ب) هل رأوا رجلاً استطاع أن يخلق ديناً وأن يتعهده بالنشر على الصورة التى انتشر بها الإسلام؟

وعلق :

وما الرسالة التى أداها محمد إلا الصدق والحق وما كلمته إلا صوت صادق صادر من عالم المجهول .

لقد أحببت محمداً لخلو نفسه من الرياء والنفاق وبراءتها من التصنع والطمع وحب الدنيا .

لم يكن محمد متكبراً ولا ذليلاً ولم يرض بالأوضاع الكاذبة ولم يتحرك فوق الأوهام الباطلة ، ومن مكانه المتواضع وثوبه المرقع خاطب الملوك والقياصرة موجهاً ومنذراً ومحذراً أيضاً .

الشجاعة فى مواجهة النفس والآخرين : لم يخش فى الحق لومة لائم ولم يقبل ما عرض عليه من مال وجاه وسلطان ، عاش زاهداً متقشفاً مجتهداً فى الله عاملاً على نشر دينه غير عابئ بما يلاقى من أهوال.

٢ - **لورد هيدل** : قال : « فكرت وابتهلت أربعين عاماً لكى أصل إلى الحقيقة ولابد أن أعترف أن زيارتى للشرق المسلم ملأتنى احتراماً للدين المحمدى السلس الذى يجعل المرء يعبد الله طول حياته لا فى أيام الأحد فقط ».

«إن للنبى العربى أخلاقاً قوية متيقنة» مما يؤكد أن الدين ليس حصة ليوم واحد بل للحياة كلها ».

« إننا فى حاجة لنموذج كامل يفى باحتياجاتنا فى الحياة . فشخصية محمد النبى تسد تلك الحاجة فهى مرآة تنعكس علينا من خلال الأخلاق فى التعقل الراقى والسخاء والكرم والشجاعة والإقدام والصبر والحلم والوداعة والعفو والتواضع والحياء ، وكل الأخلاق الجوهرية التى تكون فى أسمى صورها ».

٣ - **مايكل هارت** : وهو عالم الفضاء الشهير وباحث أمريكى مسيحى أغرم بالرجال العظماء وألف كتاباً بعنوان «المائة».

قال «إن محمداً عليه السلام هو الإنسان الوحيد فى التاريخ الذى نجح نجاحاً مطلقاً فى المجال الدينى والدنيوى . فهو قد دعا إلى الإسلام ونشره كواحد من أعظم الديانات وأصبح قائداً سياسياً وعسكرياً ودينياً ، ورغم مرور ثلاثة عشر قرناً على وفاته فإن أثره مايزال متجدداً».

«وقد استطاع مع المؤمنين بدعوته أن يقيم أعظم امبراطورية فى التاريخ».

والرسول محمد هو المسئول الأول (بعد الله تعالى) عن إرساء قواعد الإسلام وأصول الشريعة والسلوك الاجتماعى والأخلاقى وأصول المعاملات بين الناس فى حياتهم الدينية . . كما أن القرآن نزل عليه وحده . . وفى القرآن وجد المسلمون كل ما يحتاجون إليه فى دنياهم وأخراهم.

٤ - **دكتور جرينيه** : قال عن سبب إسلامه : لقد قرأت الآيات التي ترتبط بالعلوم الطبية والصحية والطبيعية وقمت بدراسة عنها ثم قارنتها بالمعلومات الطبية الصحية والطبيعية التى درستها فى الجامعة فوجدت الآيات القرآنية منطبقة عليها تمام الانطباق.

ولقد أسلمت لأنى تأكدت من أن محمداً صديق عليه صلوات الله وسلامه ، أتى بالحق الصراح من قبل أن نصل إليه فى عصرنا الحديث بأكثر من ألف عام . . وأكاد أجزم لو أن كل صاحب فن أو علم قارن بين ما جاء فى القرآن الكريم خاصاً بعلمه وفنه وبين المعلومات الحديثة كما فعلت أنا لدخل الإسلام كما دخلت « إلا من كان مغرضاً أو فى قلبه مرض » .

٥ - **رينيه جينيو** : «سمى نفسه عبدالواحد يحيى»

يقول «لقد أردت أن استعصم بنص إلهى مقدس . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلم أجد بعد الدراسة الطويلة العميقة المضنية سوى القرآن الكريم . فهو الكتاب الوحيد الذى أقنعنى وأمّن على ما جاء فى قلبى «العله يقصد وافق فطرتى وعقلى» ورسول الإسلام هو الرسول الذى أحببته وسعدت بالسير تحت لوائه وغمرتنى أقواله وأفعاله بالسعادة النفسية والسكينة الروحية ، ولولاه صلى الله عليه وسلم لغرقت الإنسانية فى بحار المادية والإلحاد والانحلال الخلقى والدمار الروحى» . . ثم يقول «لقد كانت الثقافة والعلوم الإنسانية منبع نور وهداية ولولا علماء الإسلام وفلاسفتهم لظل الغربيون يتخبطون فى دياجير الجهل والظلام» .

٦ - **الفونس دينيه** : هو الفنان المصور العالمى الذى اعتنق الإسلام بعد فترات طويلة من التأمل والتفكير وتسمى باسم ناصر الدين . لم يدخر وسعاً فى سبيل الدفاع عن الدين وتصحيح المفاهيم التى نشرها المستشرقون عن حقيقة الإسلام .

يقول «العقيدة (المحمدية) لا تقف عقبة فى سبيل التفكير ، وقد يكون الإنسان مسلماً صحيح الإسلام وفى الوقت نفسه حر التفكير» .

ويقول : الدين الإسلامى لم يأخذ فيه الإله شكلاً بشرياً وما إلى ذلك من الأشكال . إن يهوه «إله اليهود» الذى يمثلون به الطهارة ويجعلونه فى مظاهر متهالكة مبتذلة وكذلك نرى الإله فى نسخ الأناجيل المصورة ، أما الإله فى الإسلام فقد حدثنا عنه القرآن وحدثنا

عنه الرسول ولم يجرؤ مصور أو نحات أن تجرى به ريشته أو ينحته إزميله . ذلك لأن الله سبحانه وتعالى لا صورة له ولا حدود ولا شبيه له أو مثيل . وهو الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد» .

٧ - **تولستوي** : الكاتب الروسى . كتب يقول «لا ريب أن هذا النبى من كبار المصلحين الذين خدموا الإنسانية خدمات جليلة ، ويكفيه فخراً أنه هدى أمته بأكملها إلى نور الحق وجعلها تجنح إلى السلام وتكف عن سفك الدماء كما يكفيه فخراً أنه فتح الطريق إلى الرقى والتقدم ، وهذا عمل جليل لا يقوم به إلا شخص أوتى قوة وحكمة ، وعلماً فوق إمكانيات البشر ولهذا فهو جدير بالتقدير والاحترام والإجلال .

٨ - **رجاء جارودي** : بعد رحلة طويلة قضاها بين الأديان والعقائد والأيدولوجيات المختلفة . . وبعد أن درس الإسلام وعرف حقيقته كفر بما عداه وصاح معلناً أنه لم يعد يستطيع الصمت . . ثم قرر أن الإسلام هو الدين الحق ، وأن فيه الحل الوحيد لإنقاذ البشرية التى تحتضر فى مواجهة المصير المظلم الذى أوصلتها إليه أديانها البالية وأيدولوجياتها الخداعة الفاشلة . « إن الحضارة الجديدة تنبع من الإسلام عقيدة ومنهج حياة » .

وعن سماحة الإسلام يقول «لقد اعترف القرآن بأهل الكتاب أصحاب التوراة والإنجيل ، وترك لهم الاختيار بين ما هم عليه وبين الدخول فى الإسلام والرسول (ﷺ) يقول «لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ويتفاضلون بالعمل الصالح لا بالغنى والجاه والحسب والنسب» .

والكل أمام الله سواء . فلا طبقية «كما فى الرأسمالية» ولا أمم مختارة «كما فى الصهيونية» أو عناصر متميزة «كما فى الشيوعية» فالإسلام دين الإخاء والتكامل الاجتماعى والمساواة فى أجمل صورها .

ولم يكن الإسلام فى حاجة إلى القوة والسلاح لكى ينتشر لأن طبيعته وأحكامه وسماحته والقدوة الحسنة التى كانها رسوله قد فتحت الطريق إلى قلوب الناس . ويشير جارودى إلى الحديث النبوى «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، وهو جهاد النفس ضد أهوائها ونزواتها «ما هى» كالظلم والطمع والأنانية ومنها حب السلامة والعزة

والكرامة والحرية له ولذويه دون سواهم والضعف وحب المال والتكالب عليه . . ثم يقول : إن هذا الموقف النبوى العظيم درس هام لأولئك الثوريين الذين يريدون تغيير كل شىء إلا أنفسهم . ثم يستعرض جارودى عدداً من الأحاديث النبوية الشريفة ويبين ما فيها من جمال وإنسانية مترفعة ويركز جارودى على الحديث الشريف « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، والحديث الشريف « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره » ، والحديث الشريف «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » ، والحديث الشريف «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» ثم يقول جارودى : هذه الأحاديث دستور عام ينبغى على المسلمين أن يلتزموا به فى حياتهم باعتبارهم أمة ذات أهداف كريمة على أسس قويمة . دستور يصون حقوقهم فيما بينهم ويرمى إلى قيام صداقة حقيقية ومحبة صادقة قوية توثق علاقة المؤمن بالمؤمن وتجعلهم بحق كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً .

٩ - ريون اسورث سميث : أستاذ بجامعة اكسفورد قال فى محاضرة ألقاها بعنوان «محمد والمحمدية» ١٩٧٤م : لا نجد فيما كتبه الأولون عن محمد ورسالته أساطيراً ولا أوهاماً ولا مستحيلات . . كل شىء واضح وضوح النهار وكأنه الشمس فى الضحى يبين تحت أشعتها كل شىء. والعجيب أنه لا توجد شخصية علمية كتب عنها طوال العصور ما كتب عن محمد رسول الإسلام .

١٠ - مرجليوث : ذكر فى كتابه (محمد) المطبوع عام ١٩٠٥ فى سلسلة عظماء الأمم «إن الذين كتبوا فى سيرة محمد لا يتسنى ذكر أسمائهم ، وأنهم يرون من الشرف للكاتب أن ينال المجد بتبوئه مجلساً بين الذين كتبوا عن سيرة هذا الرسول .

وتذكر مجلة المقتبس التى تصدر منذ ثمانين عاماً إنها أحصت ما ألف فى السيرة النبوية بلغات أوروبا بمختلف اللغات واللغة العربية ما بلغ منها ألفاً وثلثمائة كتاب(١) .

---

(١) د. محمد عبده يمانى : كتاب علموا أبناءكم محبة رسول الله .

كيف انتشر الإسلام ؟

■ إن الظن بأن الإسلام انتشر بحد السيف فرية كبرى ، روّج لها الخصوم فصدقها بعض المسلمين على أساس من قيل له أنت سمين . قال : آمين ، لقد وهموا وهماً خطيراً فأوقعوا الإسلام فى خضم مخطط خبيث .

ولكى لا نلقى الحديث على عواهنه دعنا نلاحظ حقائق الجغرافيا الإسلامية فى ضوء حقائق التاريخ لنخلص إلى الإجابة على سؤالنا : كيف انتشر الإسلام ؟ .

إذا قارنا عدد المسلمين فى البلدان التى تم فتحها بالجيوش الإسلامية منذ فجر الإسلام بعددهم فى البلدان التى لم يبلغها الفاتحون ، فإننا سنجد أن الأغلبية الساحقة من المسلمين تسكن خارج نطاق منطقة الفتوحات . وإن كان لابد من الدليل فهاك بعض الأمثلة :

•• فى أفريقيا جنوب الصحراء :

يمثل المسلمون غالبية سكان السنغال ومالى وغانا والنيجر وتشاد ، ويكاد عددهم فى نيجيريا يزيد على نصف عددهم فى كل البلدان العربية . ولم يحدثنا التاريخ عن جيش عربى أو إسلامى توجه إلى تلك المناطق دعك من أن يكون قد انتصر على سكانها الأصليين أو فرض عليهم اعتناق الإسلام . ولكن الحقائق تقول إن الإسلام انتشر فى تلك البلاد سلمياً وبمجهودات شعبية بل شخصية متواضعة ، بذلها علماء ومشايخ ومسلمون عاديون هاجر بعضهم إلى تلك الديار بنية الدعوة إلى الإسلام وهاجر البعض الآخر لدنيا يصيبها تجارة أو رعياً[1] . حتى العرب الذين وصلوا إلى هناك أكثرهم شغلتهم أموالهم وأنعامهم ولم يسجل التاريخ لهم اهتماماً أو اجتهاداً فى سبيل نشر الدين ، بل عاشوا كحضارة منقطعة منحصرين غير محصورين فى رقعة ضيقة من شمال شرق نيجيريا ، حيث يسكن العرب «الشُّوا» والشوا كلمة مختلف حول معانيها فمنهم من قال إنها تعنى «القليلين» . هذا من غير إنكار للجهد الملحوظ الذى ظهر هنا وهناك كما يقوم به الشيخ إبراهيم صالح[2] .

---

(١) راجع الإسلام فى غرب أفريقيا تأليف : آدم عبدالله الألورى .

(٢) الشيخ إبراهيم صالح الحسنى النورى : مفتى الديار النيجيرية .

●● فى شرق وجنوب شرق آسيا :

فى الصين والفلبين واندونيسيا وماليزيا وسيرلانكا غالبية المسلمين الساحقة . وهى بلدان لم يطرقها طارق ولم يبلغها القاسم . ولكن الإسلام طرق قلوب سكانها واستقر بها حصيناً مكيناً رغم جهود التنصير النصرانية ونضال التكفير الشيوعى .

ما أبلغ وما أجمل منظر أفواجهم وحجاجهم فى نظامهم وهدوئهم وسمو خلقهم وحسن معشرهم وشدة التزامهم بالتوجيهات «لا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج» .

وما أكبر دهشتهم وما أعظم استغرابهم من غلظة وجفاء وأنانية كثير من مسلمى دار الفتح .

إن هذا بكمه العريض ونوعه العميق هو الإسلام الذى نشره علماء ومشايخ ومسلمون عاديون أيضاً ، منهم من قصد تلك الديار مهاجراً فى سبيل الدعوة خارجاً فى سبيل الله ، ومنهم من هاجر أيضاً بحثاً عن دنيا يصيبها ولكنه بلّغ ما معه ولو آية مركزاً على الخلق الكريم والمخالقة بالخلق الحسن .

●● ويغزو الغرب الغالب :

جنّد الغرب الجنود باسم الصليب يقودهم الملوك ، وأوفد الوفود وسير الجيوش المدججة بأحدث الأسلحة ليحارب سكان العالم الثالث البدائيين العزل ، إلا من عصى وقسى وحراب ، ولم يرد بذلك استثمار واستعمار أراضيهم البكر فحسب ولكنه أراد وحاول فرض خياره الحضارى ونمطه المعيشى ، وليضمن بذلك استمرار خضوعهم له جعل يلقن أطفالهم لغته فى المدارس ويدعو كبارهم إلى دينه فى الكنائس ، وكان المنطق أن ينجح المخطط بحسب قوة تأثير الغالب على المغلوب . . وبحسب دقة الخطة وحذق وحماسة التنفيذيين . واستمر الحال كذلك منذ الاستعمار وحتى بعد الاستقلال فاستغرق حتى الآن مئات السنين ، ولا أحد يستطيع أن يحصى ما أنفق فى سبيل تحقيق ذلك المخطط إلا الواحد الأحد ، ولكن الخلق يلاحظون انحسار المد الشيوعى وانقباض البسط النصرانى ، ويطالعهم فى كل حين شعاع إسلامى من حيث لا يظنون من الجهات ، وممن لا يتوقعون منه انتماءً دعك من دعوة إلى الإسلام، من مواطنين غربيين لم يتعلموا لغة العرب ولم يسع إليهم العرب بعضهم علماء، أطباء وفلاسفة وسياسيين فطاحل ،

وبعضهم مواطنين عاديين شبعوا مادية حتى أصابتهم التخمة، بعضهم فنانون وراقصون ورياضيون ومجرمون باغتهم شعاع الإسلام فى ظلمات السجون فظهرت جماعات المسلمين البيض فى بريطانيا وفرنسا وأمريكا وجماعات المسلمين السود فى الولايات المتحدة، ظهروا فجأة متصوفة ذوى كرامات وخوارق فى ألمانيا وأنصار مهدويين ذوى مدارس قرآنية ومساجد جامعة ومؤلفات وصحف فى نيويورك ودلاس وميرى لاند.

إنها بلدان خرجت على الإسلام بقضها وقضيضها، وغزته فى عقر داره جهاراً نهاراً، وقهرت شعوبه بقوة السلاح، وأكرهتها على اعتناق الخيار الغربى حضارة ولغة وديناً ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً. فإذا بالإسلام يغزوها فى عقر دارها وبنيها سراً وعلانية ولكن بقوة الحجة ووضوح البيان العملى.

•• قوة الدليل المكتوب أو الإعجاز العقلى:

كثيرون أولئك العلماء الذين وقفوا عند نصوص القرآن فاحصين ودارسين، فوجدوا فيها خلاصة حقائق الطب الوقائى والعلاجى، وخلاصة نظريات العمران والاجتماع البشرى، ومبشرات واضحة مع إشارات صريحة لعديد من المخترعات ﴿ لكل نبأ مستقر ﴾، ﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾، ﴿ إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾. وغير ذلك كثير وكثير.

وقد أوردنا سابقاً أمثلة لعدد منهم.. وهذه قصة أستاذ هندى كان يدرس الدراسات العربية والإسلامية فى إحدى جامعات بلده. تأمل النصوص التى يدرسها وراجع مراجعها، فوجد فيها الدواء الذى ينشده لأمراض الحياة، والسعادة التى يتمناها لنفسه ولغيره، فاهتدى إلى الإسلام ثم جاء حاجاً حيث قابله محدثى فى أحد مناسك الحج ورآه ينفلت من بين المتزاحمين قائلاً: «الحمد لله الذي عرَّفني الإسلام قبل أن أعرف هؤلاء» مشيراً إلى غلظة وجفاء وأنانية بعض الحجاج الذى كان يظنهم صفوة المسلمين وأشد شبهاً بالنصوص الإسلامية التى درسها واهتدى بسببها قبل أن يراهم.

•• قوة البيان العملى فى قوزا:

النصف الأول من عقد الثمانينيات قضيته فى دولة نيجيريا الاتحادية محاضراً بكلية معلمى اللغة العربية بمدينة مايدغرى. وكان ضمن من أسعدني الله تعالى بمعرفتهم الشاب

لأديب مدو سامبو الطالب بجامعة مايدغرى، جاءنى ذات مرة بدعوة من جده الشيخ بابا سامبو ، ولم أكن قد رأيته من قبل ولا سمعت عنه، وعلمت أن سبب الدعوة أن الشيخ من لأنصار الذين يعم حبهم وودهم كل قادم من دار صباح حيث معقل الأنصار ومقر إمام لأنصار ومهد الحركة الأنصارية التى قادها الإمام محمد أحمد المهدى.

ما كنت لأتأخر عن تلبية دعوة نقية من نفس رضية كنفس وشخص الجد بابا سامبو، ولا أزكى على الله أحداً، ذهبت إليه فى مدينته الريفية المسماة «قوزا» على مسافة ٧٥ ميلا تقريباً من مايدغرى، إن لم تخنى الذاكرة، وجدتها مدينة ريفية عامرة بالسكان كعادة المدن فى نيجيريا ، ولكن ما أزال أذكر لها هدوءها ووقارها وأذكر لأهلها الود والترحاب وفائق لإكرام لوفادتى وحفاوتهم بى مقيماً ومودعاً.

أما الجد بابا سامبو فقد وجدته شيخاً متماسك الجسم رغم أن ذكرياته تغوص بك فى أغوار الزمان عميقة مخترقة حدود البلاد جيئة وذهباً حلاً وترحالاً .

أخبرنى أنه زار السودان فى أواخر الخمسينيات وقضى عاماً ملازماً للإمام عبدالرحمن ابن الإمام المهدى عليه السلام، وأن الإمام عبدالرحمن قال له بعد العام: ارجع أرشد أهلك. ولم يكن الرجل من حفظة الشروح ولا المتون ولا درس دراسة نظامية فى مدرسة أو معهد ، ولا تجده منزعجاً لإقناعك بعلمه أو إطلاعك على تجاربه ، إنما تنساب المعلومات منه انسياباً هيناً طبيعياً أثناء مجرى الحديث السلس عن العقيدة والأحباب والإمام والدعوة والاستجابة ، ومع أنى لم أسمع منه كلمة دعوة ولا كلمة استجابة إلا أنى أقر أنه أحق بها وأهلها بأكثر من كثير ممن يزعمون أنهم دعاة يقبضون بسببها الأموال الطائلة ويتقلدون المناصب الرفيعة ويتبوءون الدرجات والمقامات العلية. وإنى لأحسب ما قام به كرامة له ولمن أشار عليه بذلك.

يقول الجد بابا سامبا إنه شرع فوراً فى تلبية إشارة الإمام وقصد مدينة كانو عاصمة المسلمين بشمال نيجيريا ، ولكنه استقلّ علمه وما هو بقليل إذا قيس العلم بالالتزام والتطبيق. لقد كان فى كانو علماء خريجى دارالعلوم والأزهر الشريف وعلماء حفظة ومشايخ وخطباء يجيدون فنون الخطابة ويخلبون بها الألباب، وكان طبيعياً أن ينصرف الناس إليهم غير منتبهين إلى بابا سامبو مهما كان ورعاً تقياً ومسلماً عملياً ، فلطالما اعتبر الدعاة والمدعون والمتفرجون أن مؤهلات الداعية لا تزيد عن مظهر وفصاحة الخطيب

وتمكنه من فنون الخطابة واتساع ذخيرته من القصص والنصوص ، ولكن قليلين الذين انتبهوا إلى أن أكثر من جمعوا هذه المؤهلات ، وما أكثرهم ، فشلوا في الدعوة وضعف حجم الاستجابة لندائهم كأنما ردت إليهم بضاعتهم. لأنها بضاعة من «الطوق وإلى فوق» ولا يصل إلى القلب إلا ما خرج من القلب.

هاجر الجد بابا سامبو إلى منطقة فوزا المذكورة حيث وجد أهلها في ذلك الوقت لادينيين يعيشون حياة بدائية بمعنى البدائية في مأكلهم وملبسهم ومساكنهم ونشاطهم الاقتصادي. فبنى له بيتاً «قُطية» بينهم واشتغل بالزراعة مثلهم ومارس عبادته من غير أن يجهد نفسه في دعوة أحد، لكنه بذل جهده في ترقية الإنسان وتنمية المجتمع بتحبيب الطهي عملياً ، بأن يدعو من حوله إلى مشاركته طعامه المطهو . . وشيئاً فشيئاً اتسعت دائرة من استطيبوا ذاك النوع من الطعام ، فارتبطوا بالجد بابا سامبو برباط إعجاب ومحبة . . فأخذ يحبب إليهم ارتداء ما يتيسر من الثياب ، استجابوا شيئاً فشيئاً فأعجبهم ذلك ، وزاد إعجابهم وحبهم للشيخ . . ولم يكن يدري ربما أنه بذلك قطع أطول المسافة إلى قلوبهم . . إلى هدايتهم ، فقد باعد بينهم وبين العداوة والبغضاء وغرس شجرة المحبة فنمت وارفة وباسقة. يقول إنه أول ما رأى من ثمار غرسه كان حينما أحس لحظة توجهه إلى القبلة للصلاة ذات مرة ، وقبيل الإحرام بالتكبيرة ، أحس بحركة يد في للماء فالتفت فإذا بأحد المواطنين يريد أن يتوضأ مثلما رأى بابا سامبو يفعل. وكانت تلك لحظة الميلاد وعيد أعياد المنطقة في داخل بابا سامبو، ها قد أشرق نور الإيمان في إحدى النفوس، فحدثه بأن الذي يتوضأ مثل هذا الوضوء ويصلي مثل صلاته هو مسلم وأول ما يبدأ به أن ينطق بالشهادتين معتقداً في وحدانية الخالق واستحقاقه وحده سبحانه وتعالى للطاعة والعبادة ومصدقاً بأن محمداً صلى الله عليه وسلم عبد الله ورسوله إلى العالمين. وتوالى المهتدون وتكاثر المؤمنون حتى بلغوا أيام زيارتي تلك حوالي ثلاثة أرباع السكان ، بل أخبرني أنه قد دخل الإسلام في ذلك الأسبوع سبعون.

لقد حاول المبشرون النصارى منافسته في المنطقة ، ولكنهم لم يفلحوا لأنهم كانوا يحدثون الناس عن المحبة ويعتزلونهم في المسكن مما يعتبره السكان تعالياً عليهم . . وكان المبشرون يقدمون بعض الخدمات للسكان ولكنهم يشترون منهم أشياءهم بأبخس الأثمان. جزاك الله يا بابا سامبو عن أمة الإسلام خير الجزاء.

•• الفروق بين هذا وذاك :

العقل هو أبرز مميزات البشر عن غيرهم وهم فيه متمايزون. وأبرز الفروق بين الإنسان المستنير وغير المستنير والمتعلم . . ويميز المتعلم أن المستنير أو المتعلم ذو عقل نشط مدرَّب من كثرة ما مرَّ عليه من رياضات عقلية اكتسبها من اطلاعه على تجارب الآخرين ، أو درسها في المناهج الدراسية أو في اطلاعه الحر في الكتب والصحف والمجلات أو من خلال سماعه ومشاهداته لأجهزة البث المسموعة والمرئية بلغة الأمة أو باللغة أو اللغات الأخرى التي تعلمها. ومن أبرز علامات درجة عقله ونشاطه أنه سريع التمييز بين الصالح والطالح أو الخطأ والصواب ، والمفروض جدلاً أن درجة القدرة على التمييز تزداد دقة وسلامة كلما ارتقى الإنسان في درجات العلم وزادت خبراته ، وكثير من الحالات والمواقف تصب في اتجاه تأكيد صحة هذه الفرضية إلا في قضية التمييز بين الأديان، إن الأمثلة التي وردت بصدد الكتاب والمفكرين الغربيين ممن هداهم الله ودخلوا في الدين بأسباب التعقل، فصاروا بحكم رابطة الإسلام ورابطة الانتماء إلى الإسلام ملتزمين بتعاليمه وأحكامه في كل سكناتهم وحركاتهم، بل أن الحرية صارت مكفولة لهم في إطار دين الله الحنيف وفق الموجهات التي حددها القرآن الكريم لممارسة مدركات هذا العقل . . ففي رابطة الانتماء وما تمليه هذه الرابطة من التزام على المنتمي بعد قناعته التي أوصلته إلى هذا الانتماء يمكن أن تأخذ بعض الشواهد لتوضيح قيمة قواعد الرابطة هذه أو الانتماء.

فإن الأسرة والقبيلة والمنطقة والوطن والانتماء السياسي ، كل هذه كيانات تملي على المنتمي لها بحكم رابطة الانتماء قواعداً وأعرافاً، يكون الخروج عليها بعد الانتماء فوضى لا تستقيم معها حال الأسرة أو القبيلة أو المنطقة أو الوطن وتضحي هذه الكيانات دون جدوى في الحياة البشرية. هذه هي قيمة الانتماء في ظل الحياة الدنيوية وسمو رابطة الانتماء.

فكيف يكون الحال إذا كان ذلك الانتماء هو العقيدة والاعتقاد بوجود خالق أوجدنا من العدم وأرسل لنا رسلاً مبشرين ومنذرين جاءوا بالبيان والزبر وكان خاتمهم محمداً صلى الله عليه وسلم، الذي نزَّل الله عليه الكتاب المبين والذي لم يترك شاردة إلاّ أحاط الناس بها علماً ، ومن هذه الإحاطة رسم الطريق الذي يسير فيه العقل ليمارس تفكيره.

فقد رسم الله سبحانه وتعالى طريق العقل فى تناول كافة مكونات الحياة فى عالم الشهادة ، وبيّن سائر المسائل التى يمكن أن يدور حولها العقل . فيما يختص بعالم الغيب فكثير من الأديان وجهت الإنسان إلى التفكير فى مخلوقات الله ، وذلك من أجل استوثاق إيمانه فضلاً عن إفادة الإنسان من هذه المخلوقات ومن الأرض التى هو مستخلف لعمارتها ، والاستئثار بثرواتها وخيراتها من مأكل وملبس ومسكن ، ومن كل ما يفيد البشرية . . وفى ذات الوقت كثير من الآيات ترسم للمسلم طريق التفكر فى الغيب تثبيتاً للإيمان بالخالق الذى فطر الإنسان بعقله .

إذن من دخل حظيرة الإسلام باعتقاده بوجود الخالق لزمه أن يتفكر فيه كى يثبت وجود هذا الخالق الذى هو أصلاً ليس فى حاجة إلى إيمان الإنسان أو عدم إيمانه ، بل لزمه أن يكف عن استرسال عقله المحدود فيما لا يطوله هذا العقل ، اقتداء بذات النهج الذى تمليه اعتبارات الانتماء حتى للكيانات الدنيوية والتى لا ترقى إلى درجة سمو رابطة الانتماء إلى الخالق ، بل فى قدر نجد فيه عنصر المماثلة هو أنه فى كل الانتماءات . نجد أن المنتمى قد توصل لقناعة مؤداها أنه بمفرده قد لا يستطيع إشباع حاجته ورغباته فلذا يجنح إلى الانتمائية التى تحقق له هذه المطالب .

المسلم مطالب بالالتزام بقانون رابطة الانتمائية إلى الله الخالق والذى لا يستطيع الإنسان أن يبقى فى الدنيا دون عونه ولا يستطيع النجاة والخلاص فى الآخرة إلا بعفوه .

إذن : إن الصلاة والنسك والمحيا والممات ، كل هذا لله رب العالمين . . وبذلك أمر المسلم بأنّ هذه هى قواعد رابطة الانتماء . . المسلم من أول يوم فى إسلامه إلى آخر لحظة يفارق فيها الحياة ملزم بالتقيد والالتزام بهذه القواعد ، وإلا فإن أفلت من قيود هذه الرابطة فهو من الخاسرين لا محالة . وهذا ما يفعله بعض من الناس حين يقول ما ليس له به علم ، أو يتكلم فيما هو خارج تخصصه .

فإن كثيراً من البروفيسورات والدكاترة يصدرون أحكاماً جزافية عجولة انطباعية لا تتناسب ودرجاتهم العلمية التى قد تكون فى غير موضوع القضية ، إلا أنهم فى قضايا أخرى خارج تخصصهم يوضحون علو مقدرتهم العقلية فى التمييز ودقة نظرهم أو يعتذورن بـ « لا أدرى » وهى كما قيل «نصف العلم» .

لقد ظلم بعض المستنيرين والمتعلمين والمثقفين الدين والناس بأحكامهم الجزافية الانطباعية الخاطئة، ظلموا الدين لأنهم لم يدرسوه دراسة متأنية وعمموا عليه رأيهم فى غيره ، وظلموا الناس لأنهم تكلموا بلسان المثقفين المتعلمين بل العلماء حملة الدرجات والشهادات العليا . فغرروا بعامة الناس وبعض خاصتهم .

إن الدين عند الله الإسلام ، وهو واحد فى التوحيد أما فى مجال التشريع فالأديان مختلفة نوعاً ومتفاوتة فى الدرجات ، وآخرها وأكملها الإسلام .

كل الأديان عالجت أخطاء البشرية وهدتها إلى الصواب بدرجة من الدرجات حسب الحاجة والظاهرة ، وفى ذلك التقى الساسة ورجال الدين باعتبارهم جميعاً معنيين بتوجيه البشر إلى ما فيه صلاح حالهم وسعادتهم ، ولكن بعض الأديان ركزت على صلاح الآخرة، بينما المذاهب السياسية ترتكز على صلاح الدنيا . . أما الإسلام فإنه معنى بصلاح الدنيا والآخرة معاً . . ولذلك فإن جاز فصل الأديان الأخرى عن السياسة باعتبار اختلاف موضوع السياسة عن موضوع تلك الأديان اختلاف تخصص . . فإنه غير جائز فصل الدين الإسلامى عن السياسة لاشتراكه معها فى نفس موضوعها - الحياة الدنيا فى كل مجالاتها وحالاتها - فهو نهج شامل وكامل وإطار يحتوى كل الحياة ، ويحترم العقل ويوظفه من أجل تحقيق سعادة كل البشر . إذاً ليست المشكلة بين الإسلام والسياسة ، ولكن المشكلة فى قصور فهم قضاة السياسة أو عجلة أحكامهم وانطباعيتها . . والمشكلة أنهم لم يكرهوا أنفسهم على دراسة مرافعة الإسلام أو حتى إرهاف الاستماع لها ، وإذا استمعوا فهم لا يسمعون ولذلك تاهوا عن الحقيقة التى هى أن العلاقة بين السياسة والدين بالنسبة للمسلم هى العلاقة بين الدين والحياة ، وهى علاقة تطابق وتمازج والتحام لأن الدين بالنسبة للمسلم هو برنامج الحياة كلها صحوها ومنامها ومنهاجها الذى لا ثانى له ولا خيار غيره ، ومحاولة الفصل بينهما محاولة مستحيل مهما كانت براعة الجراح إلاّ إذا قرر أن يضحى بأحدهما .

الخصمان والقاضى متفقون

■ لقد اتفقت ثلاث فئات توهمت وأوهمت بعضها وغيرها أن مواقفها من قضية علاقة الدين بالسياسة مختلفة.

(أ) المعارضون للدين أو المنادون بفصله عن السياسة :

طالبوا الإنسان بمستحيل ، وهو أن يفصل بين الحياة وقناعات العقل واعتقاداته التى بها يحدد علاقته من الناس والأشياء ، وموقفه من الطعام والشراب أى من الإنتاج والاستهلاك ، فما اعتبره مباحاً أو حلالاً اجتهد فى إنتاجه وتحصيله ، وما اعتبره حراماً اجتنب حتى إنتاجه زراعة أو رعياً أو صناعة أو على الأقل تحرج من ذلك . . ولا شك أن المطلوب من أجل الإنتاج أن يتحمس الإنسان للعمل بينما هذا التحرّج يقلل من الحماس والتحريم يمنعه .

إن المنادين بفصل الدين عن السياسة ظلموا الإنسان بأن كلفوه فوق طاقته ، وظلموا الأديان حتى الوضعية منها ، فإنها ليست باطلاً محضاً إذ لا شك أن فيها بعض الحكمة ، والحق كما أن الأديان ليست كلها نسخة واحدة فمنها السماوى ومنها الوضعى ، والسماويات وإن اتفقت من حيث دعوتها جميعاً إلى توحيد الله وإسلام الأمر إليه إلا أنها اختلفت باختلاف الرسل إليهم زماناً ومكاناً ، وبحسب الأمر الذى احتاجوا فيه إلى رسول، ثم جاء الإسلام ديناً خاتماً وشاملاً ومهيمناً ومستوعباً لكل الرسالات والأديان السماوية السابقة .

المنادون بفصل الدين عن السياسة أخطأوا فى حق الناس والأديان ، قصدوا ذلك أم لم يقصدوا ، خاصة فى تعميم موقفهم من الدين على الشمول والمواكبة لجوانب الحياة ومتطلباتها ، ولعلهم اكتفوا بآراء الانكفائيين من المسلمين الذين نصّبوا أنفسهم أوصياء على الدين وجعلوا قولهم فيه هو القول الفصل . . ولأن رأى الانكفائيين قاصر ومحدود وغير مواكب ، انتهى المنادون بفصل الدين عن السياسة إلى أن الفصل هو الحل على قاعدة «ما لله لله وما لقيصر لقيصر» ولكنهم لم يتنبهوا إلى أن الدين المقصود بتلك العبارة ليس الإسلام ، هذا مع عدم صواب محاسبة الأديان والمذاهب والأحزاب والنظريات بأخطاء أتباعها وهناتهم . . فكل الناس خطاء ، وإنما سمى الخطأ خطأ لمخالفته المعقول والمعروف عند الناس وعند المخالف نفسه .

(ب) أما الانكفائيون :

فقد اعتبروا ما فهموه من الدين هو كل الدين ، وأن ما عداه هو الباطل المحض والضلال المبين بل الكفر الصراح ، فتعصبوا لفهمهم ضد فهم غيرهم وفصلوا الدين عن السياسة عملياً بعدم المرونة والشمول والمواكبة فالتقوا بذلك من حيث لم يقصدوا مع خصومهم. وربما كان هؤلاء ثلاثة أصناف : صنف انكفأ على اجتهاد الأقدمين فألبسه قداسة لم يطلبها بل لم يرضها له أصحابه ، وصنف انكفأ على نفسه متشرنقاً يزعم أن فهمه لا فهم الأقدمين ولا المعاصرين هو الدين الخالص ، وصنف تعلق بالشكل وأهمل الجوهر وافتتن واكتفى من الدين بالمظهر . . وما يزال يقيم الدنيا ولا يقعدها بالحديث « عن الزى الإسلامى » أكثر من الحديث عن «حقوق الإنسان» فى الإسلام وعن العدالة الاجتماعية والحديث عن الاختلاط «عنده» فاق الحديث عن أسلوب الحكم ومشاركة الآخرين والحديث عن تربية اللحى حتى صدر بها منشور للقوات النظامية «السودانية» يوضح طولها لقبضة اليد وكيفية إزالتها أعمق من الحديث عن القهر والظلم الذى تمارسه جماعات الأمن المختلفة «حتى» داخل حرم الجامعات»[1] .

(جـ) فريق المحلفين :

أما هذا فقد نظر فى القضية بخلفية جهل الخصوم وجهل المحامين منهم معاً بالدين الإسلامى، جهلهم بشموله ومرونته ومواكبته وجهلهم باختلافه عن بقية الأديان ، وجهلهم بسلامته من نقص ما سبقه بحكم أنه الدين الخاتم والمرحلة الأخيرة من أديان السماء، أقول جهلهم رفقاً بهم من وصمهم بصفة العلم لما يترتب عليها من اقتراف الذنب عمداً ومع سبق الإصرار. ولجهلهم بخصائص الإسلام ومميزاته أشكل عليهم الأمر فكان كل ما فعلوه أن وافقوا طرفى القضية بأن جعلوا الفصل بينهما بفصل الدين عن السياسة .

لقد أخطأت الفئات الثلاث فظلمت الإسلام وأرادت أن تحرم البشرية من نعمته، ذلك لأنهم أخطأوا فهم السياسة وفهم الدين وفهم الحياة فخلطوا بين أشياء يمكن فصلها وهى الحقيقة المحضة وقدرة الإنسان على التزامها حسب خطة من فهمها واستطاعته . . وأخطأوا حين فصلوا بين أشياء لا يمكن فصلها حين قرروا فصل الإسلام عن السياسة، ذلك لأنهم

---

(١) د. عبد الله محمد قسم السيد – الجوع مفتاح الكفر ص ٦ .

لم يدركوا حقيقة السياسة ولا حقيقة الإسلام ولا علاقتهما بالحياة. وأخطأوا لأنهم حسبوا كل الأديان سواسية ، مع أن الأديان منها المخصوص لقوم والمخصوص لفترة والمخصوص بعلاج مشكلة من المشاكل وعيب من العيوب ، ومنها دين خاتم مكمل ومستوعب لما سبقه وما بعده، دين محفوظ من التحريف ومحصن من الجمود ورسوله مرسل للعالمين كلهم من إنس وجن «هدى ورحمة».

إن بعض الأديان يعنى بمطالب الروح ، وبعضها يلبى تلك مع بعض مطالب الجسد ، وكذلك تفعل المذاهب السياسية من اشتراكية ورأسمالية وما بينهما ، أما الإسلام فإنه يوازن بين مطالب الجسد ومطالب الروح ويوظف مقدرات الجسد بإمرة العقل للحفاظ على المقدس والنفس والمال والنَّسل وعلى العقل نفسه جوهرة الإنسان وميزته وسر تكريمه، ليحقق للإنسان سعادة الدارين فيحقق ما حامت حوله وتجادلت النظريات من مادية ديالكتيكية جماعية ، إلى مادية لبرالية فردية رأسمالية بمختلف درجات كل منهما . . ولطالما أغلقت الأبواب على الشعوب وراء الأسوار العظيمة والحوائط المتينة أملاً ألا يظهروها ولا يستطيعوا لها نقباً. ولكن اللبراليين التمسوا إشباع الروح بإعطاء العطف والحنان للقطط والكلاب فأنفقوا عليها بلايين الدولارات «فقد جاء في دراسة أجرتها جريدة نيويورك تايمز أن عدد الكلاب والقطط في أمريكا وحدها يبلغ ١٠٠ مليون (مئة) في حين أن عدد السكان يصل إلى ٢١٣ مليون . . وكذلك وجدت أن القطة تستهلك سنوياً ١٥٠ كيلو من لحم البقر والكبد ، وأن الكلب يستهلك سنوياً ٢٧٥ كيلو من اللحوم المشوية والجبن ، تكلف في مجملها ٤,٥ بليون دولار سنوياً بالنسبة لمجموع القطط والكلاب»(١).

هذا في أمريكا الرأسمالية اللبرالية أما في الكتلة الشرقية الشيوعية فقد شهد من أهلها رئيسها وقمة هرمها الأخيرة ميخائيل غورباتشوف حيث قال بعد سبعين عاماً من إغلاق الأبواب وحبس الشعوب في سجن الماركسية اللينينية معزولة عن الدين وممنوعة عن تغذية الروح أو تلبية مطالبها : «يلزمنا بذل نفس الجهد الذى بذل لإبعاد الناس عن الاهتمام بالجانب الروحى لإعادتهم إلى الاهتمام به وكذا عن إرجاع المرأة إلى البيت وواجباته»(٢).

---

(١) د. عبد الله محمد قسم السيد - الجوع مفتاح الكفر ص ١٢ - وقد أورد أن هذا الرقم يكفى لإطعام ١٢٠ مليون نسمة في أفريقيا .

(٢) ميخائيل غورباتشوف - البروسترويكا.

ولقد شهدنا كيف أن تلك الشعوب هبت من نومها وسباتها جائعة نهمة فى جمهوريات الاتحاد السوفيتي الإسلامية الست ، وهى التى نالت استقلالها ولم ترض له بديلاً ولا به مساساً ، ولقد شهدنا الشيشان يقبلون على الموت كأنهم يقبلون على المغانم ، ذلك لأن الموت هو ثمن الحرية وحرية الدين الإسلامى ، أما غير المسلمين فحتى من تململ منهم هدأ واطمأن مما يدل على أن إسكات صوت المسلم غير ممكن إلا بالموت ، لأن إسكات صوت الروح ليس ممكناً إلا بالموت فذاك الذى ما يزال يزعج المملكة المتحدة فى أيرلندا، ولقد اشترط المختصون فى أمريكا السلامة الروحية شرطاً للعلاج من إدمان الجنس أى الشرط ألا يكون المدمن كافراً . . بل ها هو عالم الهيام بالجمال الحسى يفوق من هيامه بالأعطاف والأرداف وغيرها من أجزاء الإناث الفاتنة ليعلن أن «المفاهيم تغيرت وأصبح الاهتمام بالروح والثراء الداخلى للشخصية وأفكارها ومشاعرها بعد أن لم يعد الجمال «الحسِّى» هو الشرط الأساسى لاختيار ملكة الجمال»(١). مما يؤكد أفول شمس العلمانية فى مطالعها ويعنى أن المطالبين بها يتعقبون السوق ، ومما لا ينبغى أن يمر عليه المرء بلا تأمل ما حفل به يوم ٥/ ١١/ ١٩٩٦م فى موسكو وواشنطن .

فى موسكو كان الرئيس الروسى بوريس يلتسن قد دخل عملية من أخطر العمليات لإجراء تبديل لخمسة شرايين فى قلبه تلفت بسبب إدمان الخمور الذى جعل ابن الخمسة والستين ربيعاً يبدو وكأنه فى أرذل العمر .

وفى واشنطن كان الرئيس الأمريكى بيل كلنتون يتحدث منتشياً بفرحة إعادة انتخابه رئيساً للولايات المتحدة ، ولكن المقابلة ليست بين الفرح والحزن فقد حول العلم بحول الله تعالى حزن آل يلتسن فرحاً حين نجح الأطباء فى إجراء العملية الخطيرة . ولكن المقابلة فى أن الأول - يلتسن - كان يقول للدنيا بلسان الحال إن الخمر أم الكبائر تلحس العمر وتتلف القلب أفلا تستحق جزاءً على ذلك أن تحرّم ويجلد شاربها ويلعن صانعها وحاملها والمحمولة إليه . أما الثانى - كلنتون - فقد كان يقول بلسان المقال فى خطابه بضرورة الاهتمام بتربية الأولاد والحفاظ على الأسرة أى العناية بالروح وتنظيم الجنس وضبطه . وذلك ما يقول به الإسلام وسنعرض له بتفصيل أكثر عند الحديث عن الموازنة الإسلامية .

---

(١) مجلة حريتى المصرية - عدد ٢٨/ ٧/ ١٩٩٦م .

أقول هذا ولا أذيع سراً إن قلت إن على الأحزاب ألا تأمن بعضها على أفكارها ، بل ولا على أقل مصالحها المعنوية والاعتبارية بل حتى المادية إن لم يبق للإنسان إلا أن يعيش من أجل المصالح المادية فالصراع حتى فى هذا سر قوى ، ولا يزال الناس يتقاتلون ويختلفون لا يرضى الفقير منهم بفقر ولا يقتنع الغنى بغنى كما لن يقنع المنتصر بنصر ولا المهزوم بهزيمة .

والحال كذلك فالحكمة فى أن تكون الدعوة إلى الافتراق والالتقاء على أساس الفكر والنظر فى أى المعروض من الأفكار أقرب إلى الحق ، لا أن نستبدل ذلك باستبعاد هذا إلى اقتسام السلطة والثروة والسلاح فمن يقسم لمن وكم لمن ولماذا وإلام ؟ وما ضمان الاستمرار إذا كانت الأخلاق ستصبح منكراً ورجساً واجب الاجتناب ؟ فليس حقيقة أن الاحتراب والاقتتال كله حول هذه الثلاثة وإن كانت هى بعض أسبابه ووسائله ولكن الاحتراب والاقتتال، كان وسيظل حول أشياء اعتبارية ومعنوية ، هذا وإن صح أن كثيراً من الناس ينتمون إلى الأحزاب والفرق بحكم مصالحهم الاجتماعية .

لقد رأيت من المختلفين فى الرأى والفكر والطرق بغض النظر عن حداثتهم أو تقليديتهم أو ثقافتهم أو أميتهم أو علمانيتهم وإسلاميتهم أنهم يسرّهم أن يتفانى خصومهم بعضهم البعض؛ وسمعت ذلك بلسان المقال صريحاً وإن اختلف التصريح بين الهمس والجهر حسب درجة العداوة والاستغناء وعدم الرجاء فى الانتفاع أو الالتقاء . . فمن قائل «دعهم كفار يقاتلون فجاراً» ومن قائل «كلهم زى بعض، كلهم ملّة واحدة» وهو قول إن صدق القصد لن يبعد عن الحق الذى لا يتعدد . . ولكن الناس طال بهم العهد بالتقسيم والاقتسام مع أو ضد الحق المحض . . فالمصالح الشخصية والأسرية والطبقية والاجتماعية والشعوبية والوطنية والحزبية كثيراً ما تطغى على الموقف من الحق المحض أو الباطل المحض، ومن الناس من يعلنها صراحة «الدنيا مصالح» ومنهم من يعترف باجترائه على الحق ضمناً فى عبارة «ربنا غفور رحيم» ومنهم من يبرر خطأه بخطأ الآخرين ومنهم من يحاول إلباس باطله ثوب الحق رغم أن الحق عز وجل أنزل فى ذلك قرآناً يتلى ويتعبّد به فقال ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ﴾ وحتى إن كانت المصالح الاجتماعية مصالح طبقية فى رأى بعض المذاهب والنحل فإن «الناس يعبّرون عن مواقفهم الطبقية أيديولوجيا وفلسفياً وتنظيمياً ويدافعون عنها حتى الرمق الأخير بغض النظر عن

طبيعة المواقف ، فكل طبقة ترى موقفها وانتماءها هو الصحيح وتنظر إلى مواقف الطبقات الأخرى باعتبارها خطأ»(١).

•• اختلاف مفهوم السياسة عند الساسة في السودان :

اهتمام السودانيين بالسياسة ظاهرة حقيقية لا تحتاج إلى دليل ولا برهان ، ولا يغيرها الزمان ولا يغيرها المكان بعداً أو قرباً ، سواء في ذلك من كان منهم في الحكم أو في المعارضة أو كان حراً طليقاً أو سجيناً مقيداً ، أو سواء كان السوداني داخل السودان أو خارجه في مرسى من مراسي الغربة أو مرمى من مراميها . حتى الراعي منهم في مغارات الجزيرة العربية لا يطلب من «عمه» أن يحضر له كساء ولا طعاماً ولا غير ذلك من أولويات غير السودانيين ولكنه يوصيه بإلحاح أن يحضر له جريدة حتى ولو كانت أي جريدة إن تعذرت الجريدة السودانية . . حالة تشبه العشق والإدمان ولابد للمدمن من بعض ما أدمنه ؛ طعمه أو رائحته أو لونه أو متعلق من متعلقاته . مع أنهم في بعض الأحيان يجدون من السياسة من الشر والضر والعنت مايجعلهم يعلقون عليها كل تعاساتهم وأنواع شقائهم .

تسمع ذلك من الأستاذ الجامعي كما تسمعه من الأمي الراعي ، ويحدثك عنه في بعض الأحيان سياسي محترف ، بنفس الأسى الذي يتحدث به في بعض الأحيان مفجوعو السياسة من الآباء والأمهات والأبناء والبنات والزوجات . فما مدى فهم السودانيين لهذا الشيء الذي أدمنوه؟ وهل هي سبب شقائهم حقاً؟ أم ما هي الأسباب؟

لنبدأ أولاً بفذلكة عن مفهوم السياسة عامة ، ومفهومها الإسلامي خاصة ، وحظ السودانيين من كليهما :

كلمة سياسة قيل إنها تعني فن الممكن من كل شيء ، يحتاجه الإنسان في سعيه الدؤوب من أجل السعادة والتغلب على الحاجة والشقاء . . ولعل هذا ما يوحيه اللفظ العربي «سياسة» من رفق المحاولة ، وصبر وعزم المحاول الذي عليه أن يكون كسائق على طريق جبلي وعر مزدحم حيث يلزمه أن يتنبه إلى من خلفه ومن أمامه من السيارات بافتراض أنه أعقل الثلاثة . . ويتنبه إلى الحفر والمتاريس تحته ، وفي ذات الوقت جنبات

---

(١) د. محمد سعيد القدال - الإسلام والسياسة في السودان .

الطريق ومنعطفاته الحرجة. وفى لفظ السياسة ما فيه من معنى التطويع والتطبيع الذى يمارسه السَّيِّس مع الجواد الجامح[1] لعل ذلك يحوم حول المعنى الذى أشارت إليه العبارة القرآنية الموجهة للدعاة ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ والمعنى الجامع الذى أحسبه أقرب إلى استيعاب مجالاتها وغاياتها ووسائلها هو التعريف الذى جعله السيد الصادق المهدى أحد دهاقنة السياسة مدخله لها ، مفرقاً بذلك بين فهمه وفهم من يقولون عن السياسة إنها نفاق أو إنها كذب أو خداع حيث قال إنها «أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وسعى لإصلاح حال الناس فإن تعدت ذلك فهى هرج لا داعى له» وذلك ينسجم مع تعريف فقهاء المسلمين لها بأنها «كل ما من شأنه أن يكون الناس به أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد» فهى من هذا المنطلق سعى على الأرملة والمسكين وجهاد فى سبيل الحق والمستضعفين وهى بذلك بالنسبة للمسلم بصدق النية وإخلاص العمل لوجه الله يمكن أن تكون عبادة تعدل صيام النهار وقيام الليل . ومن أجل مثل هذه الأهداف يعطى بعض السياسيين النفس . . والنفيس وبهذا يبين الفرق بين من يعطى ليحكم وبين من يحكم ليأخذ .

وواضح أن السياسة بهذا المعنى والفهم تعد عملاً جاداً وشاقاً ، ولذلك لابد فى من يتعرض لها من المؤهلات اللازمة لإنجاز مثل هذه المهام الجسام مثل العلم والحكمة والخلق النبيل والتجرد والإخلاص والقدرات العقلية والنفسية والبدنية ، هذا الفهم يقوم على أساس أن موضوع السياسة هو سعادة الإنسان ، أو جعل الحياة ممكنة . . وبذلك تعددت الأراء والمذاهب السياسية فجاء البشر باجتهاداتهم البشرية البحتة وأبرزها الاشتراكية والرأسمالية ، وجاء الرسل بالمذاهب الدينية ، وجاء محمد ﷺ بالمذهب الإسلامى وحى الخالق ووضع واجتهاد البشر .

فهو مذهب يتكون من :

النقل والعقل أو أنه « الدين السماوى الوضعى » .

وواضح أنها مهام لا يستطيع المرء إنجازها بمفرده ، بل لابد أن ينسق مع أمثاله لتتكامل جهودهم من باب التعاون على البر والتقوى على أساس « أيد على أيد تجدع بعير »

(١) فى الانجليزية كلمة Politic تعنى بصير ، فطن .

«ويد الله مع الجماعة» . . هذا الفهم قد يبدو لبعض الناس نوعاً من التنطع والمبالغة والخيال أو أنه مثالية لا وجود لها إلا فى عالم الأمانى ، وأن حدودها أن تُكتب أو تقال كلاماً ، أما أن تصير واقعاً وأعمالاً وسلوكاً فذاك بعيد. ولا عجب فهذا فعلاً واقع الحال. ولكن لكل امرئ فيما يحاول مذهب «وما لا يدرك كله لا يترك كله».

وهذه الصفات والمؤهلات المطلوبة ليست مستحيلة فى حق البشر بل ممكنة . . وقد حدث أن اتصف بها نفر من الناس ليسوا أنبياء ولا أولياء صالحين ولا مسلمين ، كغاندى مثلاً. وإن كانت هذه الصفات ترفع صاحبها تلقائياً إلى درجة الولاية والصلاح. ومما يدل على واقعية هذه الصفات أنها فى بعض الزمان كانت الصفة الغالبة لأكثر الناس كما كان الحال فى عصر الراشدين وفى غيره من الحقب التاريخية التى ظهر فيها من البشر من سمى بنفسه وبرهطه وبعصره ، بل إن الناس فى زماننا قد تفشت فيهم هذه الصفات فمنهم من عرف بالعلم ومنهم من عرف بالإخلاص ومنهم من اشتهر بالحكمة . . وإلى عهد قريب كان جمهور الناس خاصتهم وعامتهم ، وضيعهم ورفيعهم ، فقيرهم وغنيهم مجمعون سلوكاً وعملاً وتعاملاً على فعل كثير من الخيرات التى تركها الكثيرون الآن ، وكانوا مجمعين عملاً وتعاملاً على ترك كثير من المنكرات ، كانوا ملتزمين بقيود صارمة وعلى رأسها الكسب الحلال ، والتعامل بشرف ونبل ، والشجاعة والصدق فى القول والشعور. . وكانوا ملتزمين كل الالتزام بترك منكرات عمت الآن وعلى رأسها التجسس والتزوير والنفاق والكذب والجبن وهتك العروض والمجاهرة بالمعاصى وأشكال النصب والاحتيال والاختلاس وجرأة التعدى على المال العام. إن هذه الصفات المثالية صفات ممكنة وجائزة فى حق البشر بل واجبة ، وإلا لما أمرهم بها خالقهم العارف بقدراتهم وطاقتهم ، وهو القائل ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ ، وقد كانت فعلاً سائدة فى مجتمعنا إلى ما قبل تمكن الانحراف المايوى.

ما خصصت أهلى بنسبة هذه السلبيات إليهم إلا على اعتبار أن خطأ الكبير وإن صغر فهو أكبر من خطأ الصغير . . وأن زلة العالم زلة عالم . . وما ذاك إعجاب بعثه النرجسية ولا قسوة فجرتها السادية ، ولكن المرء حيث يجعل نفسه . وأهلى زعموا أنهم شعب سياسى أو وصفهم غيرهم بذلك فتبسموا موافقين ولذلك يكون حسابهم دقيقاً ثم إن أمراض السياسة هذه قد قضت على ماضيهم النضر ومست شرفهم الرفيع ومجدهم التليد

وتكاد تخسف بهم وبدارهم الأرض . . فمع أمل النجاة والطمع فى السلامة لا بد من الانتباه والتدبر لمعرفة العلل وتشخيصها حتى يأتى الدواء مناسبا للداء ومعالجاً له بواسطة ذوى الاختصاص . . فليست السياسة علم من لا علم له ، ولاً مهنة من لا مهنة له ، بل هى أدق العلوم وأخطر المهن لأنها تقرر فى جميع شئون الحياة والأحياء منعاً وإباحة وحرباً وسلاماً.

الأهداف السياسية العليا

■ الأهداف التى ينبغى أن تتجه لها خيل السياسة هو توطيد القيم والأخلاق الفاضلة ، وتمكين عوامل الكرامة الإنسانية بالمساواة والعدل ، وإذابة الحواجز لتمتزج عناصر الأمة فتعطى مزيجاً قومياً ، تختفى فيه مميزات العناصر المكونة للمزيج ، بأمل أن يكون الارتباط والولاء بالصفات المشتركة بين عناصر الأمة والتى تكون منها مزيج قوميتها.

هذه الأهداف ينبغى أن تكون على رأس قائمة أهداف أى تنظيم وطنى ، خاصة فى دولة قامت على أنقاض دويلات قبلية كانت تتمايز باختلاف الألوان والعناصر والثقافات والعادات والمصالح.

وعلى أساس ذلك التمايز تماسكت عناصر كل منها ، وغزت بتماسكها أدب التفاخر وعوامل التنافس والكفاح من أجل الهيمنة من جهة القوى ومن أجل البقاء من جهة الضعيف. هذه الدويلات كانت فى ظاهر أمرها دويلات دينية بعضها مسيحية قامت فى وسط وشمال البلاد قبل الإسلام.

واستمرت بعد ظهوره وظلت تقاومه حتى دخل معها فى معاهدة استمرت حوالى ستة قرون ، انتهت بتمرد سلطان الدولة المسيحية الشمالية على بعض بنود الاتفاقية مما أدى إلى نشوب حرب بين الدولة الإسلامية وتلك الدولة المسيحية انتصرت فيها الدولة الإسلامية . . وبذلك زال سد المعاهدة فانهمرت سيول العرب المسلمين على شمال ووسط السودان وشرقه وغربه ، وانهارت بذلك تلقائياً الدولتان المسيحيتان دون أن تحل محلهما دولة إسلامية «١٣٢٣م» وظل الحال كذلك لأكثر من قرنين من الزمان ، ليس فيه إلا التكوينات القبلية المتنافسة على المرعى ، كان يشد عناصرها خيط الوحدة العنصرية

واللونية والتقاليد القبلية . . وظل الحال كذلك إلى أن اتحدت قبيلتان عربيتان فى الوسط فأقامتا السلطنة الزرقاء فى سنار «١٥٠٥م» وفى مقابلها كانت فى أقصى غرب البلاد دولة الفور بلهجاتها وعاداتها وحضاراتها القبلية التى لم تستطع سطوة سلاطين الفور الأقوياء أن تصهرها فى بوتقة واحدة ، فظلت كل قبيلة تحتفظ بمميزاتها وعاداتها وثقافاتها الخاصة ، وتحافظ على تماسكها العنصرى بالحد من التصاهر والتزاوج مع القبائل الأخرى ، إن لم يمكن منع ذلك . . ولم يكن بين تلك القبائل من رابط ملموس يربط بينها إلا رباط الدين على رقة حاله وانحصار مظاهره فى أركان الإسلام الخمسة ، ومدارس تحفيظ القرآن الكريم . . فلم يكن الارتباط الجهوى بالأرض يتعدى عند أفراد القبيلة ، حدود دار القبيلة ولم يكن الارتباط العنصرى يتعدى عند أفراد القبيلة قبيلتهم . . حيث كانت العلاقة بين القبيلة وجاراتها علاقة استقلال وتوجس وتربص وحالات هجوم ودفاع ومسالمة حذرة ، أو خضوع يتوق إلى التحرر والانعتاق . . وكانت علاقة شيخ القبيلة بأفراد قبيلته كالأبوة رحمة ورعاية وحماية وردعاً . . إذا استنفرهم للقتال لبوا نداءه سراعاً ، وإذا أمرهم بالكف عن القتال نفذوا أمره طائعين. هذا بينما علاقة القبائل بالسلطان المركزى هى علاقة المغلوب بالغالب تلبى نداءه حين تلبيه متكاسلة ، وتنفذ أمره كارهة ، فلم تكن لدولة ذلك الزمان مسئولية تجاه الرعية سوى حمايتها من خطر العدو المشترك الذى يهدد المصالح المشتركة والتى كانت تتلخص فى الأمن من خوف فقدان الدار والمرعى. أما فيما عدا ذلك فأبرز مظاهر الدولة هى جباية الأتاوات والضرائب وما يتطلبه ذلك من إظهار سطوة السلطان وجبروته.

ظهور الدولة الحديثة

■ هكذا يتبين أنه حتى الربع الأول من القرن التاسع عشر الميلادى «١٨٢١م» كانت القبيلة هى الوحدة السياسية الحقيقية فى معظم السودان ، رغم قيام دولة سنار التى حكمت وسطه ومعظم شرقه وغربه . . وظل الحال كذلك فى إقليم دارفور حتى نهاية الربع الثالث من القرن التاسع عشر «١٨٧٥م» . . ولا يضعف من هذه الحقيقة شمول ظل دولة سنار تلك الرقعة الواسعة من البلاد ، ولا بسط هيمنة سلاطين الفور على معظم ذلك الإقليم. وبذلك نقول إن الولاء للأرض ظل منحصراً داخل حدود القبيلة ، والولاء للأرض بتعبير آخر الولاء للوطن ، أى أن دار القبيلة كانت هى الوطن .

أما العنصر الوحيد الذى كان يصل بين هذه الوحدات القبلية فهو عنصر الدين الإسلامى ، على رقة حاله وانحصاره فى العبادات والقرآن الكريم كما قلنا ، رغم ما علق به من شوائب العادات والتقاليد الموروثة وما لحق من آثار محدودية فَهْم رموزه ومدى مبلغهم من العلم . فرغم كل ذلك كان الإسلام هو عنصر الربط والتماسك فى الدولة الإقليمية فى سلطنتى الفونج والفور . . ولذلك ليس غريباً أن اتفق أهل تلكما الدولتين وأعداؤها ومؤرخوها على نسبتها إلى الإسلام وتسميتها باسمه . . ولكنه كان انتماءً ضعيفاً . . والدليل أنه لما غزت جيوش الترك السودان واجتاحت شماله صاعدة إلى زمام الحكم فى سنار ، تم ذلك باسم الخلافة الإسلامية ، ولكن الخضوع لم يتم على ذلك الأساس وإنما على أساس أن الغازى كان قوة غاشمة غالبة ، وأن المغزويين كانوا فى حقيقة أمرهم ﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾ . . فكان الاحتلال سهلاً هيناً حيث استسلمت له قبائل الشمال وقاومته قبيلة الشايقية - وهى ليست قبيلة حدودية على البوابة - وعندما وجدت نفسها تحارب وحدها جيشاً لا قبل لها به ، رغم شراسة رجالها وحماس نسائها ، عندئذ غلّبت مصالحها فاندمجت فى جيش الفتح ورضيت بما تناله من نصيب فى الغنيمة غير خائفة من عار الخيانة الوطنية ، لأن مفهوم الوطنية لم يتبلور بعد . وحتى عندما قاوم الجعليون فقد كانت مقاومتهم حمية عزيز قوم أسعفته طاعة قبلية ففعل ما قدّر الله ثأراً للكرامة ودفع هو وقبيلته الثمن داراً ودماء ولم تهب دولة ولا قبيلة لنجدته كما لم تهب دولة ولا قبيلة لمساعدته ابتداءً . . وهكذا لم يجد من ينصره أو يؤازره أو يأويه حتى انتهت به الهجرة إلى حدود الحبشة . . بل لم يجد شيئاً من ذلك سلطان الفونج نفسه فخرج من عاصمته يستقبل جيش الفتح مستسلماً ومسلّماً ، أما الآخرون فبعضهم بادر فأوغل فى الشرق «البارد» تاركاً الحلول «القرى» للباشا الذى سمع عنه ولم يره وبعضهم بقى فى دياره متشاغلاً ببعض شأنه .

وعلى الرغم من أن دولة الفور عاشت بعد ذلك التاريخ أكثر من نصف قرن ، إلا أن تلك الفترة لم تكن فترة مقاومة وحروبات بينها وبين الفاتحين ، وإنما كانت فترة انشغال الفاتحين بما دونها ، وبما هو فى رأيهم أهم من إضافة رقعة من الأرض تتقدمها منابع النيل فى الأهمية والجدوى ، حيث ضرورة اكتشاف منابعه والسيطرة على روافده أحد أهم الأسباب عند كل الفاتحين الذين كانت دوافعهم الحقيقية اقتصادية بحتة فبعضهم يريد تأمين

الماء والرجال ، وبعضهم يريد الماء والأرض ومن عليها ، هذا رغم توحدهم جميعاً مسلمهم ومسيحيهم تحت لواء دولة الخلافة الإسلامية ، وتلفعهم بعباءة الاستعمار من أجل دواعي إنسانية وأهداف علمية كشفية .

ولذلك ظلت الدولة السودانية في التركية أسيرة تلك الأسباب الحقيقية التي ليس من بينها الوطن ، وإن وسعت وعاءه ووحدت سلطته ، إلا أنها أبقت على عوامل القبيلة كما هي اللهم إلا ما تفعله المصائب من تجميع المصابين . . فحتى الخدمات التحديثية التعليمية منها والزراعية كانت لخدمة أهداف الفاتحين وتحقيق مصالحهم . . وكانت في حقيقتهما شكلاً من أشكال الاستخدام والسخرة للبشر بعقلية نظام الإقطاع الذي يتعامل مع الإنسان على أنه بعض توابع الأرض. ومن أدلة ذلك أن الفاتحين رغم أنهم كانوا يمثلون قمتي الحضارة الإنسانية في الشرق الإسلامي اسماً والغرب العلماني النصراني حقيقة وباطناً ، فإنهم لم يزيدوا على أن انتهكوا حقوق البشر وقتذاك وطمسوا ذاتيتهم وسلبوهم كرامتهم واستخدموهم في تجهيز خيرات الأرض ، واسترقوهم بتسخير وتشجيع بعضهم على بعض ليكونوا شركاء في جريمة الاسترقاق ، حتى تكون سبة في جبينهم وحجر عثرة أمام التقائهم وتوحدهم باعتبارها عظم «أبي قبيح» ، الذي يهيج عواطف الكراهية ويكبح دواعي المحبة كلما تذكره المجني عليهم أبد الدهر ، إلا أن يتداركهم وعي وطني أو صحوة عقلية .

وعلى الرغم من أن الفتح تم باسم الخلافة الإسلامية واستهلت بالإيماء إلى إرادة الباب العالي في الآستانة ، إلا أن الباب العالي نفسه كان قد تشابه عليه البقر وتاهت به السبل ، فصار كأنه جسم شرقي وعقل غربي. وحمداً لله أن تلك الحقبة ارتبطت في أذهان العامة بحكامها وتابعيهم ولم ترتبط بالإسلام . . ولعل من أسباب ذلك :

أن الحرب ضد الإسلام لم تصل وقتذاك من الدقة والإتقان ما وصلته في نهاية القرن العشرين ، حيث تدار الحرب ضده ببعض بنيه وباسمه. حيث يقوم بعض دعاته ، إن لم نقل أدعياؤه ، بتنفيذ برامج تغيير وتشويه تكاد تؤتي أكلها لولا عناية الله وحفظه. تجارب ظلم واستبداد تتم باسم الإسلام وتحسب على الإسلام وهو منها براء. بعضهم يحسبه عليه عمداً مع علمه ببراءته منها ، وبعضهم يحسبها على الإسلام لجهله له - التبس عليه الأمر فصدّق وروّج ووجد من الجهلاء والغافلين من صدقه .

هكذا نخلص إلى أن الدولة التركية التى شملت معظم ما سمى منذ ذاك بالسودان ، أنها حملت مساوئ الدولة القبلية المتمثلة فى السخرة وطرحت محاسنها المتمثلة فى الأبوة، بل زادت إلى المساوئ أن من حل محل السلطان المحلى لا تربطه بالسكان وشائج قربى ، ولا يلزمه جوار ولا قرب ، بل هو غريب الوجه واليد واللسان يجبى الأموال ويأخذ الخيرات ليستمتع بها فى بلده حيث لا ينال أحد منها ما قد يناله الضيف أو الجائع . ويأخذ الرجال عنوة لا ليحمى بهم دارهم وعرضهم بل يرحلهم إلى حيث لا يرون ولا يسمعون عن أهلهم شيئاً ، ليرمى بهم فى الحروب بهدف تحقيق أهدافه التوسعية وأحلامه الشخصية والأسرية . . هكذا يساقون مرتزقة كأبشع ما يكون الارتزاق حيث لا يزيد ما يدفعه السيد عما يريده من بغله هذا أو يبيعه فى السوق بثمن بخس .

فى رحاب المهدية

■ على الرغم من أن المهدية جزء من عقيدة المسلم إذ تنبأ بها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، وصح عنه فيها من الأحاديث ما صح ، وعلى الرغم من اعتقادنا أن هذه الأحاديث قد انطبقت على الإمام المهدى ، فإن التصديق بانطباقها كشأن غيرها من الغيبيات متروك إلى حظ الإنسان من رحمة ربه وما قسمه له من سابق الهداية .

أما المهدية السياسية ، كحركة ثورية حررت السودان من الاستعمار وأقامت فيه دولة وطنية قومية ، وتلك مسلمة لا شك فى صحتها حقيقة ، وفضل شهد به الأعداء وعلى رأسهم ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا وقتذاك . صحيح أن من أسباب تلك الانتصارات الباهرة أن مظاهر القهر السياسى والجبروت والطغيان التركى والضرائب الباهظة والقسوة فى جمعها وانتهاب خيرات البلاد ، أدت إلى حشد ركام من الفتن . . ولكن هذه قد تكون كافية لإشعال نار الثورة ولكنها ليست كافية لتسبب انتصارها . . فكما قال ب . م . هولت «إن الظلم المتمثل فى مصادرة الحريات والقسوة فى جمع الضرائب مع عدم تقديم الخدمات الضرورية ، ليست بأكثر من أسباب سخط قد صبرت عليها شعوب مثل شعب السودان ستين عاماً هى عمر التركية السابقة ، ولكن الثورة قامت عندما ظهر القائد وحدد الهدف وأعد القوة»(١) .

---

(١) ب . م . هولت : المهدية فى السودان - صـ ٣٤ ، ٣٥ .

نعم إن كارزمية الإمام المهدى كانت عنصراً أساسياً من عناصر نجاح الثورة ، ولكن العنصر الأساسى فى هذه الكارزمية أن لها جذوراً ضاربة فى التاريخ ، رسخها فى القلوب أحاديث نبوية صحيحة ومأثورات مشهورة عن الأولياء والصالحين تنبأت بظهور المهدى ورشحت السودان مكاناً وحامت حول الزمان. . وهكذا تهيأت وتعددت الأسباب فأصبح ظهور الإمام المهدى ظهوراً منتظراً كانتظار الهلال فى موعده، ولذلك جاء التجاوب معه سريعاً . . فما إن يقدم على بلد وينادى أهلها حتى تنفتح دروب الوصال وتخفق القلوب بحبه وتهرع الرجال للقياه وتتهيأ لصحبته وبذل النفوس معه، وفى ذات الوقت تنسد الدروب أمام أعدائه وخصومه من أهل الحكم والسلطان ، وتغلى الصدور بالغضب عليهم وتستعد لقتالهم، فما سر هذا الإقبال العجيب على تلبية دعوة المهدى ، وما هو الهدف الذى حدده ، وما العدة التى أعدها لتحقيق ذلك الهدف؟

إن الدعوة لإحياء الدين النقى من الشوائب هى كلمة السر التى تعارفت بها أرواح جند الإمام فأتلفت ، وهو الحبل المتين الذى تواثقت به واعتصمت نفوسهم فهانت عليها كل تضحية وكل نفيس وإن كانت النفس ، فكان قسم الحال وعهد المقال أن لابد من صنعاء وإن طال السفر.

لقد كان القائد قمة فى معرفة ما يدعو له وقدوة فى الالتزام به . . فقد أظهر منذ نشأته شغفاً بالعلم وحرصاً على العمل به . . فحفظ القرآن وتنقل فى طلب العلم من مسيد إلى مسيد «مسجد» ، ومن شيخ إلى شيخ . . ولم يكن حرصه على إلزام نفسه اتباع ما بلغه من العلم بأقل من حرصه على التعلم حتى اشتهر عنه أنه أبى أن يتوصل إلى صيد السمك بالطعم كما المعتاد انتباهاً منه إلى قول الرسول محمد صلى الله عليه وسلم «من غشنا ليس منا» . . وتكرر منه ذلك فى تجارب كسب الرزق إذ سرعان ما يقلع عن التجربة إذا تبين له أنها تحوم حول حرام أو تساعد عليه . . فقد أقلع عن تجارة الذرة نأياً عن احتكار القوت الضرورى ، كما امتنع عن بيع الحطب حتى لا يكون طرفاً فى صناعة الخمر . . وكان مثله الأعلى هو المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم يقتفى أثره فى خاص حياته وعامها. ولعلمه بأن جهاد النفس هو الجهاد الأكبر ، حملها على طلب العلم وحث على إكراهها على اتباع مقتضاه . . ووجه ترويضها بقلة الطعام والشراب والصبر والذل والانكسار لله دون سواه . . وإمعاناً منه فى تعقب عيوب النفس وإصراراً منه على تنقيتها من الأدران ،

جعل معظم بيعته على ذلك حيث يقول نصها «بايعنا الله ورسوله وبايعناك على ألا نشرك بالله شيئاً ولا نعصيك فى معروف ولا نسرق ولا نزنى ولا نأتى ببهتان نفتريه وأن نقرأ ما يتيسر من القرآن والراتب ونزهد فى الدنيا ولا نفر من الجهاد».

وقد لاحظ أحد الدارسين أن بيعة الإمام المهدى لم تتضمن عهداً بالولاء له شخصياً ، ولا الدفاع عن حكومته ، بل ركزت بالتفصيل على التعهد بتنقية النفس وترقيتها وقد بلغ من إصراره على تنقية أصحابه من الأرجاس أنه حتى بعد أن بدأ الجهاد القتالى كان يأمر أصحابه بتعهد النفس وتفقدها ومحاربة عيوبها . . فقد قال لهم فى وقت يغض فيه غيره طرفه عن جودة النوع منصرفاً إلى الكم والعدد ، كما هو حال أعدائه الذين حملوا الجنود كرهاً إلى ساحات القتال تماماً كما فعلت حكومة جماعة الترابى عندما طفقت تصطاد الصبية من المواقف العامة والأسواق والمركبات لترميهم فى أتون الحرب . فبعد أول معركة للإمام المهدى مع الترك ، وفى طريق هجرته ، قال لأصحابه الذين هاجروا معه : «من فيه واحدة من ثلاث : الحسد والكبر أو العجب وترك الصلاة فليعالجها وإلا فليفارقنا فلا نصرة لنا به» . . كما حرر لهم فى أثناء خوضهم غمار الحروب منشوراً ينهاهم فيه عن الغلول ، منبهاً إلى أن الجهاد ليس قتلاً عشوائياً ولا غدراً غوغائياً ولا تشفياً وانتقاماً من أحد أو استعلاء واستكباراً فى الأرض بغير حق ، إذ ليس فى الإسلام حرب على دين بعد قوله تعالى : ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ وليس فيه مجال لادعاء بتفوق عنصر أو جنس أو لون على غيره بعد قوله تعالى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ وبعدما جاء فى قول المصطفى صلى الله عليه وسلم : «كلكم لآدم وآدم من تراب» ، «ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى» ولا مجال للاعتداء على الآمنين الأبرياء المسالمين بعد قوله تعالى : ﴿ لا عدوان إلا على الظالمين ﴾ ، ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ والنهى عن قتل النفس إلا بالحق .

لقد أخلص الإمام المهدى لربه فأحبه الله ، وسخر له الخلق فأحبوه وبذلوا أقصى الجهد فى إجابة إشارته وتنفيذ أوامره ، لما علموا أنها لا تصدر عن هوى أو غرض شخصى . . ولقد بسَّط لهم الإمام العلم فى منشوراته فأقبلوا عليها دراسة وتطبيقاً . . وكان يتعهدهم بالموعظة والنصح حتى وهم مقبلين على الحرب ، فيأمرهم بملازمة الأذكار والتهليل والتكبير ، لا ليلهب فيهم الحماس ولكن ليذكرهم بأن المقصود بالأمر طاعة الله تعالى . . وكان يأمرهم بالإقبال على الله ليلاً ونهاراً حتى تفرغ القلوب لله . . وكان

يحثهم على الصبر في موطن اللقاء ويأمرهم بتقوى الله وعدم استباحة المحرمات من مال الغير أو دمائهم أو أعراضهم ، وينهاهم عن قتل الأطفال والنساء والعجزة ، وألا يبالوا بكثرة العدو أو تفوق عتاده ما داموا مخلصين في أمرهم لله تعالى . . وكان يوجه رؤساء الجند بأن يذكروا الأصحاب ويعظوهم ويقرأوا عليهم المنشورات التوجيهية . . قال الشيخ إسماعيل الكردفاني في كتابه سعادة المستهدى بسيرة الإمام المهدى : «ولم يزل هذا رأيه عليه السلام في أي غزوة وأي سرية».

ذلك هو القائد الذي ظهر ، وذاك هو الهدف ، وذلكم هو الإعداد ، وتلك هي العدة التي لحمتها وسداتها الدين الخالص لله تعالى الذي تربى عليه القائد وربى عليه أصحابه ، وداوم في إصرار على الالتزام بأحكامه وآدابه في المنشط والمكره . . وبذلك فجّر تلك الطاقة القتالية ونازل بها الامبراطوريتين العثمانية والبريطانية فهزمهما شر هزيمة في ما لم يزد عن خمس سنوات . . وفي أثناء ذلك ربى ونمى ورسّخ في النفوس حساً وطنياً تجاوز حدود دار القبيلة ليتطلع إلى حدود دار الإسلام وما وراءها . . وغرس في قلوب الأصحاب حباً جعله شرطاً لمحبة القائد الإمام في الدنيا والآخرة.

الحركة الوطنية

■ وهكذا ظل مفعول هذا العامل العجيب يسرى في عهد خليفة المهدى ويربط بين الفرقاء . . يكبح جماح الخلافات ويقوم بالدور الذي من أجله يتم تجاوز الخلافات ونسيان الضغائن . . وحتى بعد أن سقطت دولة المهدية وتوزّعت فلول الأصحاب وخمد صوتهم الداوى ، ظلت قلوبهم تهفو وتناجى بعضها من غير صوت بفضل هذا العامل العجيب ، حتى قيض الله للبلاد السيد عبدالرحمن بن المهدى ؛ ليجمع الفلول ويهدهد الجسم الجريح ويغذيه من ثرى هذا العامل . . فعادت العافية إلى الجسم وعادت له هيبته وقوته وقذف الله الرعب في قلوب أعدائه فحسبوا حسابه ، خاصة لما رأوا أنَّ بعض المثقفين والذين تلقوا تعليمهم في مدارس المستعمر نفسه اهتدوا إلى أهمية هذا السر وسحره ، فولوا وجوههم شطره وانخرطوا في سلك جماعته واقتربوا من قائدها فقربهم ، فكان دورهم المشهود في بلورة الحس الوطني وتوطيده. وحدث الشيء نفسه ولنفس السبب في الجماعات الأخرى، كطائفة الختمية بقيادة السيد على الميرغني ، وطائفة الهندية بزعامة الشريف

الهندى . . فحسب المستعمر لهم ألف حساب ولجأ إلى حيلة «فرق تسد» ، فلم يفلح لأن ذلك السر نفسه كان مصلاً واقياً من تلك الحيلة . . فلم يكن أمام المستعمر إلا أن يلجأ إلى لعبة الموازنات وعمليات التقديم والتأخير . ولكنه لم ينل من شجرة الوطنية لأنها استمرت تستمد غذاءها من القادة الدينيين وتحتمى بهم ، فنمت وسمقت واخضوضرت حتى عم ظلها الوريف كل بنى الوطن ، فكانت ثمرتها استقلال البلاد عن المستعمر فى يناير ١٩٥٦م .

يخطئ البعض حين يعتقد أن استقلال السودان كان استقلالاً أبيضاً من غير دماء ، فالحقيقة أن منظر الدماء التى سالت من أجل الاستقلال الأول ، ومشاهد الفدائية الخارقة التى أدهشت الأعداء فى كررى وأم دبيكرات والشكابة وكنفية ومعتوق وأعالى النيل الأزرق وفى جنوب البلاد - تلك المشاهد لم تبارح ذاكرة المستعمر . . ولعل مشهد مصرع غردون سيظل الحلم المزعج الذى يقض مضجع كل حاكم تحدثه نفسه بالاستبداد على شعب السودان ، وسيظل الموقع الذى لقى فيه غردون مصرعه رمزاً لانتصار الحق على الباطل والحرية على الاستبداد ، وسيظل مشهد الذين اقتحموا القصر على الباشا الجنرال مشهداً يقذف الرعب فى قلب كل طاغية ومتجبر .

أهم صفات قادة الحركة الوطنية

■ لقد تصدى لقضية تحرير الوطن السليب من القبضة الثنائية رجال مخلصون فى حبهم لوطنهم وفى عشقهم للحرية والكرامة وجادون فى استعدادهم للفداء ، وكان على رأسهم الزعماء الدينيون؛ السيد عبدالرحمن المهدى راعى الحركة الاستقلالية ، والسيد على الميرغنى راعى الحركة الاتحادية ، والشريف يوسف الهندى ثالث الثلاثة الكبار ، اختلفت وسائلهم ولكن جمعهم الخلق القويم وحبهم لوطنهم وشعبهم . . فكان حب السودانيين لوطنهم حباً صادقاً ووجدهم بالحرية وجداً صوفياً رعته الحكمة والكياسة قبل السياسة ، برعاية القادة الدينيين الذين تعهدوا أنصارهم بالرفق واللين وتولوهم بالمواعظ والدروس والأذكار الراقية والأوراد ، وكان منهم من قدم المثل فى التأدب بأدب الدين والخلق القويم . . بذلوا الخير للناس وكفوا الشر عنهم ، خاطبوا كل إنسان على قدر عقله

وأنزلوه منزلته وأشاعوا العفو والصفح ودعوا للحكمة وكظم الغيظ ، ووصفوا لمن أراد الزعامة وصفتها «أدى اللقيمة وعدى الكليمة ونصف الليل أخذ القويمة»، فصارت الوجاهة بالعطاء والكرم ومد يد العون للضعيف والمحتاج والمسكين واليتيم، حاصروا الفقر وحصروا ذل الحاجة والسؤال عند حدود الإيحاء الحيي الظريف ، فكان السيد عبد الرحمن كما وصفه الشاعر سيد عبد العزيز :

كل ما الأزمات تبدأ تتمسخر عليها شهب الشيك من سماء لآخر

كان قمة السفور أن تكشف المرأة وجهها ويدها ، وقمة الفساد السياسي أن يعطي الوزير عضو حزبه ، التاجر المحترف للاستيراد أو التصدير ، رخصة استيراد أو تصدير لا أن يعطيها لمن لا سابق عهد له حتى بتجارة القطاعى المحلية كما هو الحال فى عهد حكومة الإنقاذ.

كان قمة الفضيحة أن يتجسس النبيل على غيره ، وكان عاراً تراق بسببه الدماء أن يتهم الكبير بالغش أو الكذب أو النفاق . . وكان الجبن عيباً يسقط بصاحبه إلى الهاوية ، وكان هتك العرض عاراً لا يمحوه القتل ولا الانتحار .

تلك كانت حال السودانيين وأخلاقهم قبل أن يهل عليهم الشهران المتتاليان «مايو ويونيو» بالعار والدمار ، إذ تنافسا فى إفساد ذم أهل السودان وتدنيس شرفهم وتلويث أخلاقهم.

إن حال أهل السودان حال خائض الوحل الذى لابد أن يصيبه منه شىء يلطخ بياض ثيابه . . فقد أصبح لابد من شىء من الغش والمخادعة باسم الحيلة والمصانعة واتقاء شر الأشرار وتسيير الأمور . . وطفحت حكم خائرة أبى الجاهليون أن يقبلوها وأن يقروها حين قال قائلهم:

وإذا الملك الجبان سام الناس خسفاً مشينا إليه بالسيوف نعاتبه

جاء على أهل السودان زمان فى ظل دولة الشعارات والهتافات الإسلامية أخذوا يرددون حكماً سلبية نحو: « المايخاف الله خافه » «مش حالك» . . وأرسل بعضهم اللحية قائلاً «دعنى أعيش» أو «من أجل أبنائى» . . إنها أخلاق طارئة طروء الاستبداد والقهر فى

بلد العزة والكرامة ، وليس علاج ذلك فى شعارات مضادة للاستبداد والقهر كالحرية والديمقراطية ، فما يزال الناس يقاسون ويلات التمييز العنصرى واللونى فى أمريكا رافعة راية الديمقراطية ولكن العلاج الناجع فى العودة إلى الأخلاق الفاضلة لأن العيوب عيوب أخلاقية . . فالكذب والغش والنفاق والغدر والخيانة بكل أنواعها عيوب أخلاقية . . وكما قيل :

صلاح نفسك للأخلاق مرجعه فقوم النفس بالأخلاق تستقم

كان كرمهم واسعاً لا تحده الحدود ، وفهم أهلهم ذلك فقالوا : «فاتحة أبو علوه تصرف عند أبو عبده» . . لقد تنافسوا ولكن فيما ينبغى أن يتنافس فيه الرجال . . فصنعوا وطناً عزيزاً ومواطناً مكرماً شهد له من زاروه فى وطنه ومن عاصروه فى سفره أو مهجره بالكرم والشجاعة وبالصدق والعفة والأمانة والنزاهة ، فصار مضموناً مأموناً على كل عزيز وغال وعلى كل عرض ومال مثلما كان مأموناً على بنت حارته وفريقه . . وهل لنا غير هذه الخصال ما نفخر به إذا تفاخر الناس ؟ وهل بغيرها يصح فخر ؟

ما كان ذلك سحر ساحر ولا فعل كجور ولكنه تربية أخذوها من معين الدين وتلقوها من أفواه العلماء والمشايخ والفقهاء ، ولقنوها أغانى وأحاجى وأهازيج فصار الدين سلوكاً راسخاً وطبعاً ثابتاً وعادة غالبة وتقليداً مقدساً يرد المارق عنه والخارج عليه بعبارات «خاف الله واستحى يا زول ، واسترعرضك واحفظ دمك» ، إن لم يردعه قبلاً عن الكذب خوف عيبه وعن السرقة قبح فعله « حرامى المشتقة من كلمة حرام - أى فاعل الحرام » وعن الزنا عاره وعن قتل النفس بغير حق لما ألقته فى نفسه القصص الموروثة من هيبة النفس وقدسيتها وبشاعة قتل الذمة .

لماذا نباهى بثمار أعمال رجال الدين ، ونتراكض تقرباً منهم فى الشدة والرخاء ، ونطلب المجد بالانتماء إليهم ، ونحاول لحاق ما فات بالمصاهرة أو تيمنا بأسمائهم ، ثم نأتى لنقول إن سلامتنا ومجدنا أن نطوى ذلك التاريخ ونفتح صفحة جديدة بيضاء . وأى بياض أنصع من صحائفهم؟ أم أنها نوع من ممارسة غمط الحق .

بعض تجارب التمرد على موروثنا

■ ليس طى تلك الصحائف مغامرة سنقبل عليها لنجرب ، بل تجارب خضناها طمعاً «ودَّر ما جمع» وجرياً وراء سراب حسبناه ماء ، وأوهاماً زينها أغرار أبرز ما فى سيرهم التيه والضلال والخزى والعار وضعف نفوسهم أمام شهوات البطن والفرج فى الليالى الحمراء ، أو طلب الغنى بالسرقة أو بالاختلاس أو حتى بالقمار . كان ذلك فى تجربة :

●● تجربة حكم الجنرالات (١٩٥٨-١٩٦٤) :

حكم الجنرالات بقيادة الفريق إبراهيم عبود التى استقبلها نفس مغنينا الفذ محمد وردى بنشيد :

فى ١٧ هب الشعب طرد جلاده ولى الظـــــــــلم الله لا عادو

ومن كان الجلاد المقصود إذا لم يكن هم الزعماء الدينيون وليس الاستعمار؟ ولكن لم يمض وقت طويل على الوافد الجديد حتى عاث فى البلاد فساداً ، وإذا كل الأحزاب ومن بينها اليسار تجد وتجاهد من أجل استعادة الديمقراطية والحريات العامة ، وإذا باليسار يلوذ بإمام الأنصار ورئيس حزب الأمة زعيم الجبهة الوطنية - السيد الصديق المهدى الذى تصدى للموقف حتى هتفت باسمه الجماهير الصديق صديق الشعب ، وسماه الشيوعيون «كاسترو» الذى كان فى ذلك الوقت رمز الثورة والتحرر .

وتواصل الجهاد حتى انتصر فى ٢١ أكتوبر ١٩٦٤م . فعادت الحريات وأشرقت شمسها وانطلق صوت محمد وردى هذه المرة شجياً ونديا يحدو الثوار ويطربهم :

أصبح الصبح فلا السجن ولا السجان باقٍ

وإذا بفنان الثورة البيضاء «ثورة ١٧ نوفمبر» يناجى بلاده :

السِّتة الحالكة الماضية فى تاريخك ما بتجدد عهد فساد واستبداد . .

واستقبل محمد الأمين ثورة أكتوبر بصوت سالط جهور :

مبدأ الحرية أوَّل لا بيحور لا بيؤوَّل

ورددت الجماهير معه النشيد فى نشوة تشبه السكر وكان صوت اليسار أعلى صوت فى الكورال . ولكن هل كان ذلك عن قناعة وإيمان؟

●● تجربة مايو ١٩٦٩م :

جاء انقلاب مايو ١٩٦٩م ثورة عارمة على الدين ورموزه ، ليس تحقيقاً لحلم من أحلام يقظة قائده الذى طالما حدث سماره قبل أن ينفض سامرهم عن رغبته فى حكم السودان - والعهدة على الراوى . ليس ذلك فحسب ولكن الانقلاب كان ثأراً دبَّره اليسار ، لأن الحركة السياسية سلبته حريته يوم حرَّمت نشاطه وطردت نوابه من الجمعية التأسيسية . لقد أخطأ دهاقنة السياسة حين ظنوا أنهم بذلك يمكنهم أن يعطلوا العقول عن التفكير والتدبير ، فكان عاقبتهم أن تجرعوا ذل الكبت والطغيان . . وليتها كانت عقوبة بالمثل . ولكنها كانت حقداً وسباً وشتماً وقذفاً وتلفيقاً بل إسرافاً فى القتل لم يشهد السودانيون مثله وبحجمه وشراسته من أيد سودانية ولم يروا فى أسوأ أحلامهم أنهم سيتعرضون له .

لقد حاول اليساريون فى واقعتى أبا ١٩٧٠م وودنوباوى أن يكملوا ما بدأه كتشنر ، وكأنهم طمعوا فى القضاء على بقية سيفه ، ولكنهم رغم أنهم حصدوا الآلاف بالسلاح النارى تماماً مثل ما فعل كتشنر(*) إلا أنهم فشلوا فى تحقيق مقصودهم ، إذ هبت عنقاء الأنصار فارعة سامقة من تحت رماد نار اليسار وغيره .

لقد أخطأت الحركة السياسية فى وضح النهار حين صادرت حرية اليسار ، ولكنها لم تتجاوز الحدود فحصرت نفسها فى تعديل الدستور وباستخدام إرادة الأغلبية بكل هدوء ، رغم أن حزب الأقلية اليمينى حاول أن يشعلها ناراً على اليسار بأمل أن يقضى عليه نهائياً ، لقد عدلت الجمعية التأسيسية الدستور ونفذت الحكومة قرار نواب الشعب ولكنها اكتفت فى ذلك بالحد الأدنى فلم تتعقب اليسار حتى بسجن ناهيك عن قتل ، بل غضت طرفها عن أنشطتهم الجهرية فى النقابات والاتحادات ، واصمت أذنها عن أحاديثهم . . نعم اكتفت بالحد الأدنى ، بل فعلت ما هو أكثر من ذلك وما هو أشبه بالتراجع عن قرار الحظر لما سمحت لهم بممارسة نشاطهم تحت سمعها وبصرها ، ولكن من وراء غشاء حملة لرئاسة الجمهورية .

(*) قال هنرى كوريل الشيوعى اليهودى الذى يعتبر الفيلسوف المنظر للحزب الشيوعى السودانى - قال عن حزب الأمة السودانى : « ما من سبيل للقضاء عليه الا باستيلاء الحزب الشيوعى على السلطة كتتويج لنضال مسلح مرير (يكون متهاه) سحق حزب الأمة ومن والاه » ص ٤٨ د. عبدالله قسم السيد : الدولة والمجتمع .

كان مرشحهم لها بابكر عوض الله. ولعل الحركة السياسية ، أو على الأقل القوى المعتدلة منها وهى الأغلبية - لعها شعرت بالخطأ ، فحصرت قرار محاربة الشيوعية فى حدود الطرد من الجمعية التأسيسية ، بل لعلها كانت تفكر فى طريقة لتصحيح الخطأ وتفادي الخطر . . ولعلها كانت ستفعل ذلك لو استقبلت من أمرها ما استدبرت . . ولكنهم عاجلوها بأمر دبر بليل حين نجحوا فى الاستيلاء على السلطة وتمزيق الوريقات الصفراء التى كانوا يعنون بها مسودة الدستور الإسلامى الذى أجازته الجمعية التأسيسية حتى مرحلة القراءة الثانية ، بموافقة الأغلبية الساحقة التى كان من ضمن أصواتها أصوات كتلة جبال النوبة والأحزاب الجنوبية المسيحية. لقد نجحوا فى مصادرة حرية كل من عداهم وأعلنوا توجههم وجاهروا بالتحدى ، ولكنهم لم يكتفوا بذلك بل بطروا وأسكرهم النصر فنسوا أقدار الرجال وقدرة الخالق فاستفزوا الأنصار ، إلى أن قدر الله تلك المواجهة غير المتكافئة التى قدم فيها الأنصار آلاف الشهداء دفاعاً عن كرامتهم وعقيدتهم وعلى رأسهم إمامهم . . ولكن دعوتهم بقيت كما هى وأقوى وعددهم عاد كما كان وأزيد ، أما الشيوعيون فقد حاق بهم مكرهم.

واستمرت مايو فى تخبط العشواء أو كما وصفها الرائد هاشم العطا فى بيانه الأول فى ١٩/ ٧/ ٧١م « تارة فى أقصى اليسار وتارة فى أقصى اليمين وتارة بلا اتجاه محدد » قاومت المقاومة وأخمدت الانتفاضات بكل القهر وبكل الخداع وبكل الانتهازية ، وصالحت وتنكرت وراجعت وتراجعت وتابت مزايدة ، فإن كانت قد أنجزت بعض الإنجازات الاقتصادية الكبيرة فليس ما أنجزته من تخطيطها بل غيرت مواقعه فأضعفت جدواه . . ثم ليس ما أنجزته بالكبير ولا الكثير إذا ما قورن بمدة حكمها وهى ستة عشر عاماً وهى مدة أطول من نصف عمر السودان المستقل حتى نهاية عهده . . ثم هل ما قدمته يساوى الانهيار الأخلاقى الذى أحدثته المعاناة والإهانة التى ألحقتها بالشعب الكريم شتماً وركلا وسحلا وسجناً وقتلاً لم يسلم منه حتى بعض من شاركوا فيها أو اشتركوا ؟ . . وبعد . . فحتى اقتصادياً ألم تخرج البلاد من مايو منهكة محطمة الأوصال بدرجة فرضت على فترة الديمقراطية المحتاجة لإنجازات تشير إليها قائلة هذه إنجازاتنا ، لتقنع شعبها المحتاجة لاقتناعه ، ليس فقط ليمنحها ثقة ولا يمنحها صوته فحسب ، ولكن قبل ذلك وبعده لكى لا يكون عرضة ليزعزع أعداء الديمقراطية ثقته فيها ولكى لا يستخدموه

لإضعافها وإفشالها . . كانت الديمقراطية تدرك حاجتها لذلك ولكنها وجدت نفسها مرغمة على تقديم تأهيل القديم على تأسيس الجديد ، ذلك لأنها ورثت مصانع ومؤسسات متصدعة ومحتاجة لقطع غيار يستحيل تشغيلها بدونها ، ولصيانات وأثاثات لا غنى عنها . . واقتصادياً أيضاً خلف نميرى عملة وطنية أضعف مما أوجدتها مايو ٢٦ مرة ، واقتصادياً خلفت مايو ديوناً بلغت ٢٣٠ ألف على كل مواطن ، وعسكرياً خلفت مايو جيشاً بلا كساء وبلا سلاح وبلا معنويات . . فعلى من تحسب مايو؟

هل تحسب على فترة توجه دينى وهى التى بدأت ماركسية برنامجاً ومنفذين ثم تاهت مع نظريات الوزراء أساتذة الجامعات والتكنوقراط واجتهاداتهم ، التى إما لم تفهمها القيادة العسكرية ، أو لم تصبر عليها فأجهضتها بأوامر أو بتعديل وزارى أعطى الكأس لمن لا يعرف الغرف وحتى فترة أسلمتها . . أليس من المتفق عليه أنها إساءة باسم الإسلام وتشويه له؟ ألم تتفق على ذلك كل القوى السياسية عدا الجبهة القومية؟

إن فترة مايو وتجربتها إحدى تجاربنا فى إبعاد الدين والمتدينين عن السياسة ، نتيجتها فقر عام وثراء خاص . . وها هو رئيسها الذى لم يعرف عنه ثراء قبلها ، ها هو يتقلب فى الثراء والمال ويعطى وينفق ويحتفل فى وقت افتقر فيه أهل الثراء الموروث .

•• تجربة جماعة الترابى :

تكاد ألوان الطيف السياسى تجمع أن فساد هذه التجربة وما ألحقته من دمار بالأخلاق والاقتصاد والخدمات وكل ضروب الحياة لا يحتاج إلى بيان أو تفصيل . . كما قالت مذكرة القوة السياسية التى سلمتها لمكتب عمر البشير يوم ١٩٩٦/٦/٩ فذلك أمر أصبح معروفاً سودانياً وإقليمياً ودولياً . . وقد أجريت عنه دراسات متخصصة ودونته أقلام الخبراء والمتخصصين فى فترات كانت كل دراسة منذ نهاية السنتين الأوليين تنتهى إلى خلاصة أن ما حدث هو قمة الفساد . . ولكن دائماً الدراسة التالية تنتهى إلى أن سابقتها كانت أفضل . . وصارت أخبار الغلاء المعيشى والكساد الاقتصادى والانهيار الأخلاقى دائماً أشد وأعمق وأخطر حتى مما تورده الصحيفة اليومية ، فكل يوم أسوأ من سابقه .

ولا خلاف فى مجافاة هذه التجربة للإسلام وسوء استغلالها وتشويهها له إلى حد جعل الأديب السودانى الطيب صالح يتساءل عنهم مستغرباً ومستنكراً «من أين أتى هؤلاء؟!» .

إذا كانت ثلاثة أرباع عمر سوداننا المستقل عهود أبعد فيها الفكر الديني وأقصيت رموزه عمداً ، والربع الباقي مقسم على ثلاث فترات منها ستتان حكم قومي انتقالي كان أقرب نسباً لليسار أو اليمين المتطرف ، وأحسن حالاته الحياد عن كل التيارات السياسية ، فهل من العلم والعدل والإنصاف والموضوعية أن نحكم على أداء الأحزاب ذات التوجه الديني أو الرموز المتدينة فكراً أو سلوكاً فقط بفترة تسع سنوات متقطعة بين ثلاثة عهود عسكرية، هذا مع حقيقة أننا كنا نتعلم النظرية الديمقراطية ونحاول تطبيقها عملياً ، وكانت الدكتاتورية تقاطعنا كل مرة يتدخل العسكر اللامتمين إن صح التعبير والتصنيف ، والعسكر اليساريين، والأخيرين المتمسلمين . بجانب مداخلات القوى الحديثة وفرقعات التمرُّد .

هذا بجانب حقيقة أخرى هي أنه على رغم كل تلك الظروف والمقاطعات فإن الديمقراطيات الثلاث كانت أحسنها ثالثتها ، وأن الدكتاتوريات الثلاث كانت أسوأها الأخيرة . . ومن أراد تفصيل ذلك فليرجع إلى كتاب السيد الصادق المهدي «الديمقراطية عايدة وراجحة» .

ما هي العلل الأساسية

■ ثم تبقى الحقيقة الأخرى وهي أن الممارسة السياسية علقت بها شوائب كثيرة وعوّقت مسيرتها عوائق عدة وأضعفت عطاءها علل أساسية فما هي تلك الشوائب والعوائق والعلل؟ ومن حملة مكروبها وعدواها؟ أو سوس السياسة؟

١ - العنصرية :

أي الاعتزاز بالعنصر والانتصار به وله . . وهي في شرع الإسلام دعوى جاهلية منبوذة وفتنة أمر الرسول بتركها ، وقطع عرقها حين قال : «كلكم لآدم وآدم من تراب ولا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى» وفي تراثنا السوداني ما ينبه لخطورتها على الجميع .

فذاك خليل فرح يغنى قائلاً :

ما بندور عصبية القبيلة

تربى فينا ضغائن وبيلة

وتزيد مصائب الوطن العزيز

وذاك الإمام عبدالرحمن المهدى من حرصه على توصيل المعنى بسطه باللغة الدارجة فقال «كان من خليتوا القبائل وبقيتوا سودانيين ، وخليتوا الطوائف وبقيتوا مسلمين ، يا كلكم المرفعين » مكرراً بذلك معانى عبارته المشهورة :

«لا شيع ولا طوائف ولا أحزاب . . ديننا الإسلام وطننا . . السودان» .

ولكن رغم كل ذلك ما زالت دعواها موجودة خاصة فى أوساط العوام غير أن المؤسف حقاً أن مثقفى القبائل والذين يفترض فيهم الوعى الدينى الصحيح والحس الوطنى العميق ، وبالتالى الجد فى محاربة العنصرية وسط أهلهم وقبائلهم ، هم أنفسهم يشاركون العوام الاعتزاز بالعنصر والانتصار به وله .

٢ - الجهوية :

هى الارتباط بالجهة التى ولد فيها الإنسان . . وذلك شىء طبيعى يبتدئ من حب الدار بمعنى البيت ، ويتمدد فيشمل الدار التى هى دار القبيلة أى حدودها أيام كانت القبيلة هى الوحدة السياسية ، وهى مرحلة متخلفة من مراحل الوعى السياسى . ولكنها مقبولة فى حدود الوفاء لتلكما الدارين وأهلهما لما يربط بين المرء وبينهما من وشائح القربى وذكريات المنشأ . . ومن علامات الوفاء أن يسعى المرء إلى تقديم العون والخدمات المادية والصحية والتعليمية لأهلهما . ولكن مع ذلك وفوقه تقديم الخدمة الأجل وهى الوعى ومنه الوعى الوطنى ليكون الولاء أوسع وأنفع سواء كان الوطن هو الدولة السياسية أو الفكرة السياسية .

أما بعض مثقفينا فقد شابهوا العوام والأميين ونافسوهم فى الولاء للجهة فى حدود الإقليم الذى ينتمون إليه بل إن منهم من تردى إلى درك القبلية وبؤرة الأسرية .

٣ - الحياد المتحرك :

هو أن يقف المرء بمنأى عن الحركة السياسية ، منشغلاً بهمومه الشخصية أو مسترخياً مع أسباب متعته الخاصة ، غير عابئ بما يلاقى غيره من عناء ، ولا منتبه لمن ينادى طالباً المؤازرة والعون والمناصرة ، وغير مكترث بخلاف واختلاف الآراء والمذاهب السياسية حول أيها أصح وأنفع وأقرب لتحقيق مصالح الإنسان وسعادته. ولكن المصيبة أن هذا الإنسان المسترخى أو المشغول فى بعض أوقات فراغه لحظات أنسه يوزع التصنيفات رفضاً أو قبولاً واستحساناً أو استقباحاً لهذا المذهب السياسى أو الحزب أو القائد أو ذاك ، دون أن يكون قد قرأ لأى منهم القراءة اللازمة أو استمع الاستماع الكافى. ثم إن هذا الشخص يعطى صوتاً فى أيام الانتخابات مثله مثل أى سياسى مواكب مدرك للفروق بين الأحزاب ، والمصيبة الكبرى أن كثيراً من المثقفين ينتمون إلى هذا الصنف السلبى المنشغل المسترخى ، ومع ذلك يحرص أن يكون له حق فى الانتخاب ليقرر فى معركة التمييز بين أطروحات لم يطلع عليها أصلاً. وهذا الصنف أيضاً يعتبر من أكبر العوامل الموجهة للرأى العام اعتباراً من الجماهير وخاصة العوام بكونه مثقفاً ومحايداً وذلك يجعل رأيه مقبولاً وحكمه مبرأ من تهمة العصبية والانحياز. وذلك صحيح ولكن فقط بشرط أن يكون هذا المحايد قد اطلع على مرافعات وأدبيات كل الأطراف ، وهو نقص يطعن فى أهليته لمنصب القاضى فى مثل هذه المواقف .

٤ - الاستقلالية المستقلة :

هم طائفة من الناس أغلبهم من المتعلمين أو المثقفين يدَّعون الحياد والاستقلال عن كل الأحزاب ، وعدم الانتماء إلى فكر أو مذهب ادعاءً معلناً ومنظماً فى جماعات . . ولكنهم فى الحقيقة محددو الهوية والاتجاه الفكرى والمذهب السياسى . . وهذا شيء لا يخفى نظرياً على ذى بصر . . فإذا جاز أن يكون الشخص الواحد مستقلاً أو ليس منتمياً إلى فكر أو مذهب فعلى أى أساس يلتقى مع غيره وينتظم معهم فى تنظيم ؟ . أما من الناحية العملية المعروفة فى دنيا السياسة فإن مثل هذه الاستقلالية هى حيلة لجأت إليها بعض الأحزاب خاصة اليسارية إخفاءً لهوية مستقبحة عند عامة الناس ، أو تكتيكاً يعدد منابرها فى معارك الفكر والسياسة ، ويعدد ممثليها فى المنتديات والاجتماعات ، ويضاعف نصيبها فى كل غنيمة فجاءت متخفية فى ثياب النقابات والاتحادات الطلابية .

إنها حيلة أو خدعة ابتدعها اليسار وتبنتها جماعة الترابى فيما تبنته من تراث اليسار فمارستها صحفاً ومنظمات . . وهو استغلال ممقوت خلقاً ومرفوض ديناً لقوله صلى الله عليه وسلم : «من غشنا ليس منا» .

٥ - العصبية العمياء :

هى منقصة اشتهر بها العوام الجهلاء الأميون ، لقلة حظهم من المعرفة وضعف قدراتهم العقلية ، وشدة انبهارهم وانقيادهم على قاعدة الجاهلين : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » أو كما قال شاعرهم :

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت   وإن ترشـــد غـــزيـة أرشـــد

وهى فى ظاهرها نوع من الثبات على المبدأ أو هو فضيلة أكيدة ، بشرط أن يكون الإنسان مميزاً عارفاً بمبدئه مقتنعاً بصحته عارفاً بتفوقه على غيره من المبادئ . وغريب جداً أن يكون هنالك مثقف ومتعلم أو هكذا يزعم ويكون فى ذات الوقت من حزب العصبية العمياء لأنه كمن يصلى بلا وضوء .

٦ - التنازل العمودى :

هو نقيض العصبية العمياء ولكنه قد يحدث من أصحابها ، لأن المتعصب الأعمى يتعصب بلا علم ويبدى ثباتاً على مبادئ لا يعرف كنهها ولذلك تجد بعضهم يتنازل فى بعض الظروف عن بعض مبادئه تنازلاً عمودياً منجرفاً بنفس قوة تعصبه مع تيار عصر التنازلات دون أن يفرق بين ما يجوز التنازل عنه وما لا يجوز ، فى مباحثات الصلح أو الوفاق مع الفرقاء مع أن آخر ما ينبغى له قوله إذا يئس من إقناعهم إلى الحق الذى يعتقده هو قول الله تعالى ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ .

٧ - الشخصية :

ورد أن مراتب الناس فى النقاش ثلاث مراتب :

١ - مرتبة تركز على الشخص سواء كان الشخص هو «الأنا» أو الغير ، المع أو الضد ، المرضى عنه أو المغضوب عليه .

٢ - مرتبة تركز على الحدث أين وكيف ومتى حدث ومن فعله .

٣ - مرتبة تركز على المفهوم وهى مرتبة المفكرين والمخلصين وطالبى الحقيقة المحضة.

واضح أن أعلى هذه المراتب هى مرتبة المفهوم أما أدناها فهى مرتبة الشخصية . . ومعظم العوام في هذه المرتبة فقلة حظهم من العلم والمعرفة سبب قوى فى حصرهم فى سفح الهرم. ولكن الغريب أن نجد معهم بعض أصحاب القدرات العقلية والخبرات العملية حسبما تقول شهاداتهم العلمية.

٨ - المجاملة:

هدفها أن يسود الود بين الناس على قاعدة اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية . . فهى سلوك سوى يصدر من إنسان مع أخيه الإنسان فى حالتى الفرح والكره مهما اختلفت المذاهب وتباينت الاتجاهات الفكرية أو السياسية أو الدينية ، وأبرع بنى البشر فى ذلك وأحرصهم عليه النساء فهن يباركن للزوجة الجديدة ويشاركن القديمة حزنها ويدعون لزوجهما بالتوفيق.

أما المشكلة فإن المجاملة باتت تتجاوز هذه الحالات إلى صميم الآراء والأفكار والمبادئ، بل إلى العقائد فذلك انزلاق وزيغ مهلك ، ومن أمثلتها أن تشارك فى احتفال يمجد أو يدعم ويمكن عقيدة تعتقد أنت فى خطئها أو اتجاهاً توقن بخطره أو باطلاً خمدت ناره، قال صلى الله عليه وسلم «من مشى مع ظالم يعينه على ظلمه فهو معه» «ومن أعان ظالماً سلطه الله عليه». وقال «لا يكن أحدكم إمعة».

٩ - السطحية:

هى الصدور فى الأمر عن استعجال دون إعمال العقل وإحالة الفكر والنظر . . ومنها وأخطرها الصدع برأى انطباعى فى أمر جلل . . وخطرها واضح وبين وعلاجها بضدها وهو التعمق والتروى والصدور فى الأمر على بصيرة ، لأن من يحكم فى الأفكار موافقاً أو مخالفاً مؤيداً أو معارضاً فهو قاضٍ . . والقاضى يشمله التنبيه السماوى ﴿ يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ وقاعدة ﴿ قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ .

ولا يلام العوام كثيراً بذلك ولا الأميون ، وإن كان منهم عباقرة أفذاذ . . ولكن اللوم على المتعلم المثقف المسطح فى مذهبه وفكره وأدبيات جماعته . . وأكاد أجزم أن أكثرهم

لم يقرأ وربما لم يسمع بكثير من أبجديات فكر وعقيدة جماعته . . أما من يتهم سلوكهم بضعف الفهم لما سمعوا أوقرأوا فحدث ولا حرج ، والدواء الناجع هو تدريس أعضاء الجماعة كل المنهج كما فعل الأنبياء وكما قصد الفلاسفة وأصحاب الفكر على قاعدة «فليبلغ الشاهد منكم الغائب» فالعلم بالتعلم والناس أعداء ما جهلوا وإن أظهروا التعلق والود فالعدو العاقل خير من الصديق الجاهل .

١٠ - الرياء والملق :

أما الرياء فهو أن يفعل الإنسان فعلاً حسناً ولكنه يريد أن يرى الناس فعله فيمدحونه . . وهو خلق مذموم فى الدين لأنه عمل غير صالح ، أما الملق أو النفاق فهو أن يفعل الإنسان أو يقول ما يقربه إلى ذى جاه أو سلطة . . وهى رذائل تقع من كثير من الناس ، ولكن أشدهم خطراً على المجتمع أولئك الذين يصلون إلى المناصب عن طريق هذه الرذائل ، وهذا النوع ضعيف مستضعف لا يقوى على مواجهة عنف وقوة المشاكل .

١١ - الانفعـــال :

هو حالة من عدم الاتزان العاطفى ، وهياج قد يصيب الإنسان استجابة لا إرادية لمثير مفاجئ جاوز الحد أو بالغ فى مخالفة المعتاد . ومن الحكمة والمصلحة والسلامة تجنبه بقدر الإمكان ، ويتجنب أسبابه سواءً كانت مفرحة أو محزنة . ولعل بعض القراء قد تذكر عزيزاً مات بصدمة شدة الفرح وفى ذلك معروفة تنبيهات الأطباء البشريين لبعض مرضاهم . ومن أبرز أسباب الانفعال وأضرها الغضب . . تلك الثورة الشيطانية التى تنتفخ معها الأوداج وتضطرب الفرائص وترجف الشفاه وتحمر العيون . ولخطره العظيم حكى عنه محمد صلى الله عليه وسلم من جاءه يستوصيه فقال له «لا تغضب» قال الرجل أوصنى «أى بغير ذلك» فقال الرسول « لا تغضب» وكرر ثلاثاً . ومع هذا فكثير من الناس يخفى عنك مخالفته لرأيك أو لسلوكك مصانعة ومجاملة ، ولكنه يخزن كل ما رأى وسمع . . ويعضهم يبذل الجهد لاصطياد الأخطاء والهنات والسقطات ، ويتجسس لمعرفة مستور العيوب منتظراً لحظة الغضب . . وغالباً ما يكوِن غضبه بسبب مصلحة له ؛ مالاً أو جاهاً أو رئاسة أردت أن تنافسه فيها أو قلت إن غيره أحق بها منه ، عندئذ ينفعل غاضباً وينفجر كالبركان مخرجاً حمماً مخزونة من عيوبك وسقطاتك التى ظلّ يعرفها ويسكت عنها وعليها ، مع أنها قد تكون عيوباً من النوع الذى يعم ضرره الجماعة أو الحزب أو الأمة

بأسرها. فبعضهم لا يغضب إلا لنفسه ، وهذا شخص ضار لنفسه ولجماعته وهو معول هدم وسبب خزلان وهزيمة ، ويزداد الخطر والضرر كلما علت درجة هذا النوع التنظيمية.

١٢ - الحسد :

وهو تمنى زوال نعمة الغير ويتبعه أحياناً عمل منظم وجاد وغمز ولمز وهمز ومشى بالنميمة والوشاية وسعى لإشانة السمعة لتحقيق الأمنية.

والحسد مرض نفسى يأكل صدر صاحبه وينكد عليه حياته الدنيوية ويفسد عليه أعماله فى الآخرة . . ألم تر أن الله تعالى أمر بالتعوذ منه فقال ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ وقد ورد أن الملائكة تصعد بأعمال العباد ، ولكن أعمال الحساد ترد قبل أن تتجاوز السماء الدنيا .

ولخطورة الحسد وضرره وعظيم شره قال الإمام محمد أحمد المهدى لمن جاوره مهاجرين معه إلى قدير «من كانت فيه واحدة من ثلاثة فليعالجها : ترك الصلاة والعجب أو قال الكبر والحسد فإن لم يستطع فليفارقنا إذ لا نصرة لنا به».

والأحزاب السياسية بل الحزب السياسى الواحد تلمح فيه مواقف من بعض الناس أقوى بواعثها الحسد . . فهلا انتبه المصابون بمرض الحسد لأنفسهم وسارعوا بعلاجه قبل فوات الأوان وانقضاء الآجال.

١٣ - سوء الاستغلال :

الاستغلال من حيث المبدأ ليس بخطأ ولا خطيئة إذا كان المقصود الاستفادة من شىء فى شىء آخر . . وهو ما يحدث فى الصناعة والزراعة كاستخدام السماد فى التخصيب والمحاصيل الزراعية فى التصنيع . . ويحدث مثلاً فى التعليم كوسائل إيضاح سمعية أو بصرية . . ويحدث فى الجدل والفكر استشهاداً بالنص لإثبات صحة قضية أو بطلانها.

أما المنكر منه فهو سوء الاستغلال الذى هو استخدام شىء طيب محبوب مرغوب لترويج باطل أو دعم ضلال أو تمكين ظالم . . ومن أمثلة ذلك :

١ - سوء استغلال المال فى التزوير والرشوة والإغراء وإفساد الذمم وشراء المواقف ، قال ﷺ : « لعن الله الراشى والمرتشى والرائش » أو كما قال.

٢ – سوء استغلال الإعلام فى التشهير وإشانة السمعة ودعم الفسق والفجور والانحلال ، والدعوة والترويج للأفكار والمذاهب الفاسدة المفسدة . . ومن قبيل النهى عن ذلك النهى عن الكذب والخداع والغش والتضليل والتزوير .

٣ – سوء استغلال النسب والانتماء إلى الصالحين والمصلحين ارتزاقاً بأسمائهم وابتزازاً لمريديهم ومعجبيهم لتحقيق مصالح شخصية تخالف أهداف السلف ومبادئهم وقد نهى رسول الله ﷺ عن الاعتماد على النسب والاعتزار به فى أكثر من حديث منها قوله ﷺ : « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» .

٤ – سوء استغلال الدين فى إخفاء باطل أو الترويج له ، أو فى خدمة مصالح تنظيمية أو مطامع ونزوات شخصية . . وهو ضرب من العبث بالمقدس عاقبته خذلان وخزى وعرى فى الدنيا قبل الآخرة . . فهو بذلك أسوأ وأبشع أنواع سوء الاستغلال .

٥ – سوء استغلال النفوذ والدرجة العلمية فى التلبيس والتدليس والتغرير بالعامة والدهماء .

٦ – سوء استغلال أخطاء وهنات منسوبى المنظمات والأحزاب وفضحها لقتل شخصياتهم واتخاذها دليلاً على بطلان منهج الحزب أو الجماعة .

٧ – مع التسليم بسوء هذه الأنواع جميعاً وملاحظة نفور كل ذى فطرة سليمة وعقل رشيد وخلق كريم منها ، إلا أن البعض يقع منه ذلك لاقتناعه بغايته وهدفه ، واقتناعه بعجزه عن تحقيقها بالوسائل الصحيحة السليمة . . هذا مع استعجاله عليها وعدم قدرته على الصبر ، وقد يحدث ذلك من جاهل لا يدرى سوء ما يفعل . . ولكن أبشع صوره أن يحدث من قادر عارف فذلك من سوء الخلق ومرض النفس .

١٤ - قصور الثقافة :

هذه المناقص والعيوب التى شانت مسيرة السياسة وانتقصت عطاءها قد زاد خطرها ، وضخم ضررها اتصاف كثير من المثقفين بهذه العيوب . . فلماذا عجز المثقفون عن التخلص من هذه العيوب ؟ ولماذا عجزوا عن فهم الدين الإسلامى فهماً صحيحاً؟ للإجابة على ذلك ننظر إلى ركائز العملية التعليمية الثلاث : المنهج والمدرسين والطلاب .

إن أغلب المثقفين اكتسبوا ثقافتهم مما حصلوه من المناهج الدراسية والاطلاع والسماع الحر المقصود والعرض أما المناهج فهى علمانية أكاديمية بحتة فى غالبها ، لأن حظ الدين منها مقررات محدودة ومكررة ، تركز أكثر ما تركز على دروس العبادات والوقائع والتواريخ .

أما المدرسون فقليل منهم المؤهل أكاديمياً ، ومعظمهم مدرسون غير منفعلين بجوهر الدين ويتعاملون معه على أساس التلقين لا الإقناع والتربية . . وأكثر الطلاب يغيبون عن حصص التربية الإسلامية وأكثر من يحضرها ، يحضرها بجسده بينما قلبه معلق بغيرها أو مفتون بضدها ، بعضهم يغيب عنها استخفافاً بها وبعضهم يغيب عنها انصرافاً لما يظنه أولى بالاهتمام ، لصعوبته أو أهميته . . أما النجاح فجميع الطلاب واثقون منه والمدرسون لا يخذلونهم ولا يخيبون ظنونهم . . ويكفى أن يحفظوا النصوص . . فالأستاذ عطوف رفيق يراعى ظروف تلاميذه ويجعل الأسئلة مباشرة وسهلة ابتداء ، ويصححها بكل عطف وحرص على نجاح كل تلاميذه .

أما جمهور المثقفين فإن مصادر ثقافتهم إما معادية للدين أو جاهلة به ، وتتفاوت درجات عدائها وجهلها بحسب وجهتها . . فالغربية عداؤها عداء انصراف ، بينما الشرقية مواجهة ومجابهة وهى مصادر كثيرة ومتنوعة لا يكاد الإنسان يجد منها مكاناً فهى فى الكتب والصحف والمجلات وبرامج الإذاعة وبرامج التليفزيون وعروض المسرح والسينما وفى أشرطة الڤيديو والكاسيت .

أما مصادر الثقافة الإسلامية فقل أن تسلم من الانكفائية أو السطحية أو العصبية بدرجة تنفر القارئ المهتم والباحث الجاد .

إنها ثقافة أقوى صلاتها بالإسلام المكان والعناوين وأسماء الكتب . . ولذلك فأقوى صلات كثير من المثقفين فى المنطقة هى المكان والاسم والنسب بجانب عقيدة لا تخلو من الشوائب ، وعبادات متقطعة متراخية مسروقة السنن والأركان متروكة المستحبات ، منقورة فاقدة الطمأنينة والخشوع بسبب ضعف المعرفة الدينية أصلاً . . ثم بسبب أثر النسيان المعان بعدم المذاكرة والمراجعة . . ولذلك فلا تفاجأ إذا وجدت أستاذاً أو دكتوراً أو محامياً قد ضيع فرائض الصلاة أو نسى نواقض الوضوء أو سألك عن ما يقرأ فى الجلوس الوسط ، هذا عن الصلاة التى يتذكر حتى هذا الشخص أنها هى عماد الدين ، أما نصيبه من الفكر

الإسلامى فانطباعات قد ينقصها الدليل ونتف من آثار قراءات عفوية غير مبرمجة وسماع مشوش ، وكل ذلك قد يولد انطباعاً حسناً وربما إعجاباً وقد يزحزح صاحبه نوعاً ما من الانطباعة والظنية ، ولكنه غالباً ما يقف به دون مرحلة اليقين الذى يحتاجه من يريد أن يختار طريقاً واحداً من طرق شتى ومتقاطعة .

إن المحن التى باتت تحاول دك مفاخر أمتنا وإزالة حاضرها وتهديد مستقبلها من أسبابها الرئيسية الاستبداد القائم على طموحات بنيت على التعصب لوهم التميُّز والتفوّق الشخصى أو الجهوى أو القبلى أو العنصرى أو المذهبى أو الطبقى أو الثقافى . هذه الأسقام والأمراض بعضها مزمن وبعضها معاصر وناشئ . . وكان الظن أن تنكرها الثقافة ويقضى عليها العلم ، لكنها أصابت بعض المتعلمين والمثقفين فتفاقمت معضلات الأمة .

وهى فى الأصل أمراض نفسية أو علل أخلاقية أو ضعف همة وقصور فهم وعجز تحصيل وعلاجها كله موجود فى الإسلام إذا درسه المختصون دراسة متأنية موضوعية مبرأة من آثار التجارب والممارسات الخاطئة التى وقعت وتقع باسمه خطأ أو عمداً من بعض منسوبيه والمدسوسين عليه من الأفراد والجماعات والدول .

هذا هو العلاج ، وليس العلاج فى فصل الدين عن السياسة ، لأن ذلك يعنى إراقة الدواء وانتظار عواقب الداء ، ولا يفعل ذلك إلا أحمق أخرق لا يعرف الدين ولا الهندسة . . ومثله إن حاول العلاج بقطع رأس العجل وكسر البرمة فأضاعهما معاً . . كما فعلت البصيرة أم حمد و :ما قيل «الما بيعرف ما تدوهو اغرف بكسر الكاس ويحير الناس» .

ولن تبلغ السياسة المجردة من الدين أن تشد قلوب أهل الإسلام إليها ، ومهما اشتدت بأهل الدين المسغبة وأذلتهم الحاجة وأخضعتهم الطوارئ ، فإن ارتباطهم بالسياسة المتجردة من الدين إذا حدث فلن يزيد عن أن يكون ارتباطاً طارئاً مربوطاً بغلبة وشدة أسبابه وضعف قوى المستجيبين بفعل الحاجة والضرورة حتى مثل هذه الحالات ابتدعت لها عبقرية الجماهير حيلة تحافظ بها على مبادئها ودينها مع الأخذ بنصيبها من دنيا السلطان سواء ، كان السلطان سلطان سياسة أو مال أو قوت . . ذلك كما فى مقولة «طعام معاوية أدسم والصلاة خلف علي أقوم» أو فى مقولة بعض أهل السودان فى إحدى الدوائر الانتخابية «نأكل تورنا ونذى دكتورنا» وذلك عندما حاول مرشح التفوق على منافسه باستغلال إمكاناته المالية فى شراء :صوات الناخبين بالطعام أو غيره .

يمكن القول إن وحدات المنظمات السياسية في السودان معنية في ذاتها بشكل فردى . قبل تفاعلها كمؤسسات تسهم جميعاً في بلورة السياسة السودانية ، فهى بشكل فردى معنية بالممارسة الديمقراطية الحقة .

ذلك أن العوامل التى سبق ذكرها . وأجلها التعلق بالنظرة الضيقة فى إطار الحزب . هذه العوامل ما هى إلا نتاج طبيعى لطبيعة الممارسة السياسية الديمقراطية داخل هذه الوحدات السياسية . فإذا طورت هذه المؤسسات الحزبية بكثير من الممارسة الديمقراطية . فإن ذلك يخلق شعوراً واحداً بقيمة الرأى ، والرأى الآخر لكن الظاهر أن المؤسسات السياسية الحزبية نفسها فاقدة للشيء ، فبدهى أن تفقده عند ادعائها فى الممارسة العامة فى إطار الدولة ومؤسساتها . . إنها الديمقراطية .

الجوهر الموضوعى الذى يجب أن تدور حوله فعاليات الأحزاب السياسية هو الوطن وطريقة إدارة حكمه وهى الديمقراطية .

أى تعصب يبعد الأحزاب عن هذا الجوهر ، لا يمكن أن يوصف بشيء سوى أنه مهدد من مهددات الديمقراطية ، فالديمقراطية حق ومسئولية وليست ترفاً .

طريق السعادتين

■ لو كانت السعادة بالتمنى لما حرم منها إنسان ، ولو كانت كل الطرق تؤدى إليها ما شقى إنسان . . غير أنها مطلب الجميع ولكن الفائزين بها قلة لا لصعوبتها وهى صعبة ولا لغلاء ثمنها وهى غالية ، ولكن لأنها خلاصة علاقة الإنسان ببقية المخلوقات بما فيها الجمادات ، إن هو أعطى الذى عليه وأخذ الذى له وتصرف بقدر موزون ، مؤثراً غير مستأثر محباً لغيره ما يحبه لنفسه وكارهاً لهم ما يكرهه لنفسه من سمعة وسلامة وكرامة ومال وبنين ، نابذاً الحسد . . عندئذ تكون نفسه هادئة مستقرة راضية مرضية فتحس حلاوة السعادة . هذه الصورة الرومانسية هى التى تحققها على أرض الواقع الممارسة الفعلية لحياة تقوم على الإيمان والالتزام بالحرية والعدالة والمساواة للأنا والغير وللقوى والضعيف والمع والضد وللأقلية والأغلبية بمفهوم أن الجميع أجزاء فى ماكينة الحياة وسعادتهم تتحقق بحركتها ، وحركتها الكاملة تتم بسلامة كل أجزائها من الأعطاب المادية

والمعنوية ، الجسدية والنفسية ليعمل كل جزء بطاقته غير معترض ولا منقبض ، فيعطى جهده مخلصاً وصادقاً فى عمله . . وبذلك العمل الجاد الذى تشارك فيه كل طاقات المواطنين . ولن يتم ذلك ممن يشعر بقهر أو غبن أو غلب .

السعادة إحساس بالرضى والاطمئنان يملأ النفس وهو يأبى الحلول أو الجوار مع الحسد والظلم والعدوان فكيف نريد السعادة حقيقة إذا ألغينا إرادة الأغلبية وقهرناها بإساءة المسيئين وعون المستفيدين ؟ كيف نريد السعادة إذا حاولنا ومارسنا سياسة تشعر الأغلبية بأنها مقهورة ومغلوبة ونحن ومنذ استقلالنا وحتى الآن نعانى من سلبيات إحساس الأقلية بالقهر والغلب والغبن؟ وكيف وقد قاومنا تمرد الأقلية ، وحاولت حكوماتنا المدنية والعسكرية منذ قبل الاستقلال فى منتصف القرن العشرين وحتى قرب نهايته ، كلها حاولت حل الإشكال باللجوء إلى القوة العسكرية فما زادت نار التمرد إلا اشتعالاً لأنها ما زالت تعكس الغبن والحقد استعارا . وها هى جميع القوى السياسية والعسكرية قد انتهت إلى أن الاستقرار والتنمية هما أبناء السلام . . والسلام هو الشعور الشخصى بالاطمئنان والاحترام والكرامة والعزة وليس القهر والكبت والخداع والمراوغة .

● **الدين والهندسة** : إن العقل السليم لابد أن يقتنع بهذا التحليل ، وليس بالضرورة أن يكون صاحب العقل مسلماً فمن لم يدرك كل الحقيقة يمكن أن يدرك بعضها . . وقد سمع أحد أهلنا الحلفاويين لإمام قرأ عليهم «جنات تجرى من فوقها الأنهار» فقال له : « يا أخى أنت كان دين ما تعرف هندسة ما تعرف» والاستعمار على بصيرة من أمره ، ولأنه ينطلق بوعى فى سبيل مصالحه ، فقد عرف أن الدين الإسلامى هو سر قوة المسلمين وصمام أمان مصالح وحقوق البشر ومصنع السعادة الموزونة ودين الكرامة والحرية للجميع والمساواة بين الجميع . . وأدرك أن لا سبيل لاستغلال وضم أغلبية أهله من المسلمين الواعين بدينهم ، ولا وسيلة لنهب خيراته وإهانة أهله واستضعافهم . . لأن الإسلام دين شرع القتال للدفاع عن الحرية وأمر وحث عليه لنصرة المستضعفين كل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، وأمر بالضرب على يد الظالمين انصافاً للمظلومين كل المظلومين ، مثل ما أمر بالصلاة والصيام والزكاة والحج بل جعل أفضل الجهاد كلمة حق أمام سلطان جائر وجعل الساعى على الأرملة والمسكين كالقائم الليل الصائم النهار . . ومن أجل أن يحمى الاستعمار مصالحه من قوة هذا السر جند باسم

الإسلام من أساءوا باسمه، وروج مخازيهم وأخطاءهم خصماً على حساب الإسلام مع أن أجهزة الاستعمار من الدقة بحيث تسمع الهمس داخل الغرف المغلقة وترى المخبوء داخل الأرض ورجاله من الخبرة والعلم بحيث يستطيعون الفرز بين أقرب الأشياء شبهاً ببعضها، ولكنه الخلط المتعمد والربط المقصود بين الإسلام والمسيئين باسمه ، فنصبوا بذلك شركاً وقع فيه الكثيرون مسلمين وغير مسلمين فأظهروا استخفافاً بهذا السر وأعلنوا عداءهم لهذا الدين فعطلوا بذلك حركة التحرر من الاستعمار ليعطوا الاستعمار زمناً أطول فى الاستمتاع بوطنهم وخيراته مع إهانة مواطنيهم ، وفوتوا بذلك على أنفسهم فرص الاستمتاع بقوة هذا السر، وعلى رأس هؤلاء أهل اليسار وحلفائهم مع أنهم فى ظاهر فعلهم ومعلن قولهم ألد أعداء الاستعمار بل هم الجهة المعادية للاستعمار اسماً وشعارات .

لا أرى أننا سنعالج جراح الأمة أو نكسب المعركة إذا لم نوافق على هذا التشخيص أو نعتمد الموضوعية فى النظرة إلى الدين ، وخاصة الدين الإسلامى . . ونشرع فوراً فى العلاج مبتدئين بأنفسنا فالأقرب فالأقرب أسرة أو جماعة من غير تأخر أو تأخير لمعركتنا من الظلم والفقر وسعينا من أجل التنمية .

موقف الإسلام من كليات الإنسان الأساسية

•• أولاً - أصل الفطرة الإنسانية :

كل إنسان راشد بصرف النظر عن دينه أو جنسه ولونه ، يكره أن يراه الآخرون فى موقف فاضح . وكل البشر فى دواخلهم متفقون على إنكار المنكرات والمواقف الفاضحة ، والدليل على ذلك أن من يفعلها فى خلوة أو يحصرها فى أضيق نطاق وفى أقصر زمن يدافع عن نفسه بالإنكار أمام من يخافه أو يحترمه أو يرجو أن يفوز برضائه كالوالدين والأبناء والرؤساء والكبراء .

١ - البشر متفقون بفطرتهم على :

(أ) الرغبة فى ممارسة الجنس ولكن دون إطلاق، وكلهم تقريباً متفقون على أنه من العيب والعار ممارسة الجنس مع الأم أو البنت ويعتبرون ذلك انحرافاً بل انحداراً من الإنسانية إلى البهيمية .

(ب) منع الجنس مع المثيل أو ما يسمى بالشذوذ الجنسى.

(جـ) منعه مع الزوج فى مكان مكشوف يراهما فيه غيرهما. هذا مع أنَّ الجميع يعرفون طبيعة العلاقة بين الزوجين، ولكنهم متفقون على ممارستها فى الخفاء وعلى الابتعاد عما يتصل أو يوحى بذلك.

٢ - اعتبار إتيان الدبر أى اللواط انحرافاً وشذوذاً، وحتى فى الدول التى قننته لم تنزع من الناس فطرة الاشمئزاز منه ومن فاعليه.

٣ - أن العرى مرحلة بدائية ورمز لتخلف المجتمع، وحتى فى المجتمعات الحديثة التى بلغت قمة مرحلة الحضارة تعتبر ظاهرة التعرى حالة من حالات الضعف البشرى ونوعاً من الانحدار، كأنما يريدون أن يقولوا بأنها عودة إلى البدائية.. وهكذا نجد أن العقلاء والكبراء من الرجال وكذا العاقلات والكبريات من النساء وذوى المكانة الاجتماعية المعتبرة سياسية أو اقتصادية أو غيرهما، كلهم يكرهون العرى.. وكالمستحيل أن يراهم أحد غير أزواجهم متعرين بل يعيبهم مجرد التبذل، وهم لذلك يكرهون أن يروا غيرهم متعرياً أو يظهرون ذلك بحكم المكانة حتى إن كان منهم من فى دواخلهم شعور بلذة فى النظر إلى العراة.

لأن العرى فضيحة تسقط الهيبة وعيب لا يليق بالشخص المحترم الراشد ولذلك وجدنا أن أبوينا آدم وحواء عندما بدت لهما سوءاتهما طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، وما ذلك إلا لأن العرى يثير الشهوة ويعرض الإنسان للسقوط إلى البهيمية وممارسة الجنس فى غير مكانه وزمانه وكيفيته وربما مع شخص لا يجوز ممارسته معه.

والإسلام تعامل مع ظاهرة الجنس بموضوعية دقيقة وعابها متعقباً عناصرها وجوانبها المختلفة الإيجابية والسلبية بأن :

(أ) جعل ممارسة الجنس بين الزوجين عملاً صالحاً يثاب عليه الزوج لأنه يعف نفسه ويعف زوجه عن ممارسة الجنس مع غير الزوج. وسن قانوناً يحرم ممارسة الجنس مع غير الأزواج وأمر بقتل الزانى المحصن «المتزوج» وجلد البكر (غير المتزوج).

(ب) حرم ممارسة الجنس مع الأبوين والأبناء، واعتبره من أبشع المحرمات وأنكر المنكرات.

(جـ) حرم ممارسة الجنس مع الجنس المثيل «اللواط والمساحقة».

(د) منع ممارسة الجنس مع الأطفال.

(هـ) ألزم الزوجين بعدم خدش مشاعر الآخرين وإثارتهم بممارسة الجنس أمامهم.

(ز) أمر بستر العورة ومنع التعرى وذم التبذل ، وحرم الإثارة ولو بالصورة العارية قفلاً لباب الفساد.

ما الذى فعله الإسلام غير أن نظم الجنس لتجنى البشرية خيره ، وحماها من شر الفوضى الجنسية وما تجلبه من عار وتوترات نفسية ، وما تسببه من أمراض فتاكة ، وما تخلفه من ضياع أبناء أبرياء هم ضحايا نزوات وضعف آبائهم.

ما الذى فعله الإسلام غير أنه قنن الفطرة السليمة؟ صدق رسول الإسلام الذى قال: «الإسلام دين الفطرة».

•• ثانياً - العقل :

بالعقل سما الإنسان على غيره وملك الدنيا ، وبموجب العقل كرمه الله وكلفه واستخلفه وسخَّر له مخلوقاته وطالبه فى مقابل ذلك بإخلاص العبادة ، وكل البشر يحاولون ترقية عقولهم ويفتخرون برجاحة العقل ويحرصون على سلامته ويسقطون من يفقده ويعيبون من أصيب بلوثة ويكرهون أن يصيبهم الجنون وينفرون من المجنون ويحزنون لحالته .. بعضهم يقيده أو يربطه وبعضهم يرمى به فى المصحة مع أمثاله بعيداً عن زوجته وأولاده ووالده ومجتمعه.

إذن كل البشر مصلحتهم فى الحفاظ على العقل وهم بالتمنى متفقون فى ذلك ، والعلماء على اختلاف أديانهم وألوانهم وأصولهم العرقية متفقون على أن هناك أشياء تفسد العقل منها: الخمر والمخدرات والتدخين، والعرف الراشد والعلوم الحديثة كلها تحمى الإنسان من هذه الموبقات من أجل الحفاظ على سلامة العقل وقد سنت الحكومات أقسى العقوبات على تجار المخدرات ومتعاطيها. أما الأديان فقد كرمت الإنسان بالعقل وكلفته بموجبه. والإسلام أشدها إكراماً للعقل ونهياً عما يفسده ولذلك حرم متلفاته وشرع عقوبة على متناولى بعضها «الخمر» تصل حد الجلد أربعين إلى ثمانين جلدة وقد تزيد مع الاستمرار والإصرار والمجاهرة.

فإذا كان الطبيب البشرى الفرد يمكن أن يقرر وينفذ قراراً بإكراه مريضه على تجرع الدواء المر مراراً ، وربما قرر قطع بعض أجزاء جسم المريض ليحافظ على سلامة باقى الجسم ، أليس من المنطق والرفق بالإنسان أن يحمى الإسلام مدمن الخمر المجاهر بتعاطيه بدناً وعقلاً من ضعف نفسه بجلدات منظمة موضعاً وكيفية وعدداً حيث حدد حتى مقدار ارتفاع يد الضارب . هذا مع توفر فرصة تفادى هذا العقاب بعدم تحدى الإنذار المضمن فى تحريم الخمر وإعلان عقابها وتنفيذه فى من يثبت عليه أمام الملأ .

●● ثالثاً - الحرية :

لأنها قيمة الإنسان فهى مطلب كل إنسان وهى لذلك تعتبر الكلمة السحرية التى تتوسل بها الأحزاب والقيادات فى سعيها لكسب تأييد الناخبين الأحرار ، بل أن الاستعمار يبرر استعماره للناس والدول بأنه يريد تحريرها من الاستعباد والجهل والفقر والمرض .

إن الاعتراف بحرية الإنسان هو دليل الاعتراف بوجود الإنسان وعلامة احترامه . . بعض البشر يريدها حرية مطلقة تبيح لكل إنسان أن يفعل ما يريد ، وبعضهم يريدها حرية خاصة وقاصرة على بعض الأصول العرقية بدعوى التفوق العقلى أو النقاء العرقى أو الاصطفاء الإلهى ، وبعض الأفراد يريدها لنفسه فقط ملغياً بذلك عقول كل من سواه كما يفعل الطغاة والمستبدون .

كل الأديان السماوية دعت للحرية بدعوتها لنبذ الخضوع والخوف من غير الخالق الواحد الأحد. وكذلك فعل الإسلام ، ولأنه الدين السماوى الخاتم فقد نبذ سلبياتها من الإطلاق الفوضوى والقهر والحصر الظالم فضبطها بضوابطه الدقيقة لتحقق الهدف منها وهو سعادة كل البشر وليس بعضهم ، ولذلك قيد إطلاقها فى حدود ما لا يتعارض ومصالح الآخرين ولا يضر بالشخص نفسه ، وجعلها حقاً لكل الناس لا يستأثر بها عنصر أو جنس دون غيره ، ولا يقتصر على ذوى الجاه والمال والسلطان. جعل الإسلام الحرية حقاً لجميع البشر ولكنه أعطاهم منها بقدر موزون ، وكل البشر يعرفون الموازين المقدرة والمقيسة بأدق المقاييس ويعملون بها فى السلع والمحاصيل والمعادن ، ويعرفون المكاييل والموازين فى الماديات ، إلا أن بعضهم عندما يأتى إلى الحرية لا يريد ولا يقبل التعامل بالموازين بل يريد الحرية كلها . . ولكن العقل كما التجارب يقول بأن الإطلاق إطلاق

للمفسدة وكذا الحرية المطلقة مفسدة مطلقة ، ولابد لها من حدود منها ألا تتعارض مع حرية ومصالح وسلامة وكرامة الآخر والآخرين ، بل ومنها ألا تلحق الضرر والشر بنفس الإنسان ذاته إذ ليس الإنسان حراً أن يلحق الضرر الجزئى أو الكلى بنفسه مثلما ليس له أن يفعل ذلك بغيره . ولا شك أن الإنسان لا يفعل ذلك إلا لظروف غير طبيعية كفقدان العقل أو حالات الانهيار النفسى أو غيرها .

لقد اعترف الإسلام بالحرية وجعلها ركنه الأول ، وأباح بحجة الدفاع عنها رفع السلاح على المعتدين عليها ، بل أنكر الإسلام على الإنسان أن يفرط فى حريته أو يقيم بأرض يناله فيها ظلم أو ينال غيره من المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، وجعله عند ذاك أمام أحد خيارين :

١ - قتال المعتدين على حريته أو حرية غيره من المستضعفين .

٢ - الهجرة فى أرض الله الواسعة بعيداً عن القهر والظلم .

هكذا نجد أن الإسلام هو دين الحرية ، وأن المسلمين هم حماة الحرية . . فإن جاء أحد يظلم الناس باسم الإسلام فالإسلام برىء منه والمسلمون براء منه بل واجب عليهم أن يضربوا على يده .

●● رابعاً - الملكية الخاصة والملكية العامة :

النفس تطمع أن تمتلك كل قَدر من كل شىء لو تستطيع إلى ذلك سبيلاً ، ولكنها لا تستطيع لأنها لا تملك أصلاً القدرات والمؤهلات لذلك من الناحية العملية ، كما ليس ممكناً أن يتحقق ذلك عقلاً ومنطقاً إلا لواحد هو المالك الذى يقسم بين الآخرين . والقسمة العادلة نظرياً هى أن يأخذ كل إنسان إما قدر قدرته أو قدر حاجته ، ولذا تصارعت القدرات المتفاوتة على المقدار المحدود . فحصل التقاتل وسالت الدماء وأزهقت الأرواح ، مع أن حاجات البشر واحدة ومتفاوتة .

ولقد عالجت البشرية فى فلسفاتها المختلفة العلاقة بين غريزة حب التملك وبين القدرات المتفاوتة والحاجات المتشابهة ، معالجات مختلفة . المستبدون اعتمدوا الحق للأقوى وعلى أساس ذلك قامت وهدمت ممالك وممتلكات ، الشيوعيون حاولوا حلولاً فوضوية مدمرة . بعض المذاهب والنحل دعا الضعفاء إلى التسليم بضعفهم وتسميته زهداً فى الدنيا

أو رهبانية، الشيوعيون حرضوا الضعفاء على الأقوياء والفقراء على الأغنياء والسوقة على النبلاء، أما الرأسماليون فقد حاولوا بناء أمجادهم ليس على حساب الفقراء والضعفاء والسوقة فحسب بل على عرق الفقراء والضعفاء والسوقة.

والحرب بين الفلسفات والمذاهب سجال لا تعرف نصراً دائماً ولا هزيمة أبدية، لم تحلها معالجات التشاريع والاتفاقات الوضعية لأنها إنما تعالج علاجاً جزئياً أو موضعياً، أما الإسلام فمنهجه أن يعالج كل الأجزاء علاجاً نافذاً إلى أصل الداء ومنبته.

أباح الإسلام لكل إنسان أن يمتلك ما يستطيع مما هو مباح «أى ليس ملكاً لغيره»، وحمى هذه الملكية الخاصة من تعدى الآخرين عليها بالسرقة «الأخذ خفية» أو السلب «أى أخذها بالقوة» وجعل على المعتدى عقوبة تصل حد قطع اليد، ولكنه وضع لذلك شروطاً منها:

١ - أن يكون المال المملوك صحيح الملك وفى حرز.

٢ - ألا يكون السارق محتاجاً ولا أخذه بشبهة ملك أو وراثة أو ادعاء نصيب كأن يظنه مالاً عاماً.

٣ - أن يكون المال المسروق مالاً معلوماً، ومقداراً معروفاً «نصاباً».

ولزيادة انتفاع المالك بماله جعل الإسلام الانتفاع به فى الدنيا والآخرة، حيث أمر مالكه يدفع جزء من هذا المال للمحرومين تأميناً لماله ونفسه فى الدنيا ضد الحقد الشخصى والطبقى، وبذلك يكون فى ذات الوقت قد استودع هذا المال الذى يدفعه للفقراء والمحرومين فى حسابه فى الآخرة راجياً به الأجر والمثوبة من مالك الملك. وجعل بعض هذا الاستثمار الأخروى ركناً من أركان الدين الخمسة هو الزكاة ﴿ مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ وجعل هذه الزكاة حقاً للفقراء والمساكين ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾ ولم يكتف الإسلام من القادرين والراغبين فى المزيد من الأجر والخير بقدر الزكاة المعلوم، إنما رغبهم فى الاستزادة والإكثار من الصدقات .. فجاءت النصوص تترى حتى جعلت درجة «الساعى على الأرملة والمسكين كالقائم الليل والصائم النهار» وجاءتهم من جانب الذنوب والخطايا «كلكم خطاء وخير الخطائين التوابون» فجعلت المال كفارة للذنوب وجعلت الصدقة باباً لإطفاء

الخطايا «الصدقة تطفئ الخطيئة» وهكذا وفى أكثر من موقع ربط القرآن الكريم بين الصلاة وإطعام الطعام . . قال تعالى ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين فى جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم فى سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين ﴾ وقال جل وعلا ﴿ أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدُعّ اليتيم ولا يحضُ على طعام المسكين فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون ﴾ . وقد حذر من اتباع الصدقة بالفخر والمن والأذى ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ . وبذلك لا يكون الإسلام قد حمى المالك والمجتمع بأسره من نار التحاسد وشرور البغضاء فى الدنيا فحسب ، بل جعل المال سبباً من أسباب سعادة الآخرة ودخول الجنة . . ولم يقف الأمر عند حد الترغيب فحسب بل ذم البخل والشح والإمساك عن الإنفاق بحديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر فيه عن دعاء ملكين كل صباح وكل مساء «اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً» أما العقوبات المادية المحسوسة فهى :

١ - عقاب المالك الممتنع عن دفع الزكاة بالمقاتلة إلى حد القتل على أن يقوم بذلك ولى الأمر .

٢ - يعاقب السارق بغير سبب من الأسباب التى اتفق عليها الجمهور بعقوبة قطع اليد .

ونلاحظ أن عقوبة المالك الممتنع عن دفع الزكاة القتل ، بينما عقوبة السارق حتى وإن كان متعمداً وسرق نصاباً من حرز بغير شبهة ملك ولا حاجة جوع أو نحوه لا تتعدى قطع اليد . وملاحظة أخرى أن دافع الزكاة والصدقة لا يعتبر أنه قد فقد ماله ، بل هو على يقين أنه ادخره ليوم يجد فيه ما عمل من عمل محضراً «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمال مثقال ذرة شراً يره» . . فالمسلم الحقيقى يدفع ماله بطيب خاطر ، وهو بذلك يعمل من أجل سعادة فى الدنيا والآخرة .

فما أوسع البون بين نظام التكافل الاجتماعى فى الإسلام وبينه وبين النظم الأخرى .

الموازنة الإسلامية

■ جاء فى القرآن الكريم ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾ ولقد انتهى اجتهاد البشر إلى أن يوازن بين حاجاتهم وقدراتهم واستهلاكهم وإنتاجهم ، وقسمت الحكومات ذلك باسم الموازنة ولكن كثيراً من البشر فاته أن يطبق هذا الأسلوب فى حياة الإنسان وعواطفه ومشتهياته ، فنجد بعضهم قد حرم نفسه تحت مسمى الزهد من طيبات المأكل والمشرب وملذات الجنس وشهوات امتلاك أنواع المال ومتعة الأبوة والأمومة ، وبعض آخر من البشر قد أطلق لنفسه العنان فى جانب من الجوانب وحرمها فى غيره . . أما الإسلام فقد اعترف بكل حاجات الإنسان ومطالبه واستجاب لها ولكن بقدر موزون من «كل شىء» . . ومن كل شىء هذه تشمل المعنويات والمحسوسات وتشمل كل ما يصح أن يقال عنه إنه من المخلوقات ، بما فى ذلك الرغبات والعواطف والشهوات وليس الماديات المحسوسات وحدها وهو ما يمكن تسميته بالموازنة الإسلامية مجاراة للمصطلح العصرى الاقتصادى ، فقد أقر الإسلام بحقيقة نفس الإنسان وبحاجاتها ومطالبها . . كلها ولكنه نظمها على النحو التالى :

● **العاطفية** : أمر بحب الله وجعله غاية العبادة وأسماها وأخلصها ، ولكنه قرن ذلك باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فى كل ما أخبر به أو أمر أو نهى عنه وزجر . قال تعالى : ﴿ إن كنتم تحبون الله فاتبعون يحببكم الله ﴾ وجاء فى الترغيب فى حب رسول الله ﷺ : «لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده» . . وجاء الحض على حب الوالدين الكثير منه حديث « من أحق الناس بحسن صحابتى؟ قال أمك ، قال ثم من؟ قال أمك قال ثم من؟ قال أمك قال ثم من؟ قال أبوك » .

وكذلك اعترف بحب الجنس الآخر وما يتبعه من سكن ومودة ورحمة . . قال تعالى ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليهاوجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ . وجاء فى القرآن والسنة من النصوص ما يبين قيمة الجمال والتجمل والزينة والتزين ، قال تعالى ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ وفى الحديث «إن الله جميل يحب الجمال» وقد فسر ابن عباس رضى الله عنهما قول الحق تبارك وتعالى ﴿ ولهن مثل الذى عليهن ﴾ فقال : إن على الرجال أن يتزينوا للنساء كما على النساء أن يتزين لهم .

• **الملكية** : أقر الإسلام بالرغبة، والحاجة البشرية للملكية الخاصة والملكية العامة وقننها وحماها، ولكنه قيدها بقيود الكسب الحلال والصرف المباح والاستقطاع الإلزامي «الزكاة» فجعله أحد أركان الإسلام وحث على الادخار الاختياري بالإكثار من الصدقات، وبيّن ما يجنيه المنفق المستخلف على مال الله الذي أتاه من فوائد في الدارين من رضى نفس ومحبة اجتماعية وإحسان وثواب من الله تعالى. كما نوّه إلى شرور التقتير والبخل والشح والإمساك في الدنيا مثل الانقباض النفسي والبغض والحسد الاجتماعي والغضب الرباني، ولكن أكثر من ذلك أحل قتال مانع الزكاة ومن فرق بينها وبين الصلاة لأنها ﴿ حق معلوم للسائل والمحروم ﴾ .

وفي ذات الوقت حمى الإسلام الملكية الخاصة وجعل المال أحد ثلاثة حقوق واجبة الصيانة «النفس والمال والعرض». ونهى عن التحايل على أموال الناس بالغش أو الاعتداء عليها بالاختلاس أو السرقة أو النهب. قال تعالى ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ﴾ وقال ﴿ والسارق والسارقة ﴾ .

وقال في الحفاظ على أموال اليتامى ﴿ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً ﴾ ، وفي الحفاظ على المال العام جاء النهي عن الغلول وشرع العقاب على الاختلاس.

• **الحاجة الجنسية** : كما اعترف الإسلام بالحب بين الذكر والانثى ، اعترف بغريزة الميل إلى الجنس الآخر ، ولكنه نظمها بالزواج الشرعي وحث عليه وأمر به وبإعلانه فحرم الزنا وغلظ في تحريم ممارسة الجنس مع الجنس المثيل لواطاً أو مساحقة ، وسمى ذلك منكراً وفاحشة وشدد في العقوبة عليه.

• **الأبوة والأمومة** : اعترف بها الإسلام وأعلى مقامها وجعلها حقاً وواجباً للوالد والمولود.

• **الجماعية** : اعترف الإسلام بأن للإنسان أحوالاً خاصة لايجب أن يطلع عليه فيها غيره ، فحرّم التطلع والتجسس على الآخرين. واعترف أن للإنسان ميل طبيعي إلى الآخرين أسرة أو جماعة وأنه محتاج إليهم كما هم محتاجون إليه ، فجعل لكل طرف حقوقاً وعلى كلٍّ واجبات.

• **المادية** : اعترف بحاجات الجسم المادية من طعام وشراب وعلاج ورياضة ، ولكنه أحل ما لابد منه منها ، وأباح ما لا ضرر منه ، وحرم ما سوى ذلك .

• **الروحية** : اعترف الإسلام بأن للإنسان حاجات أخرى سوى المادية هى حاجاته المعنوية كالرغبة فى الترفيه والاستمتاع بالسمع والنظر فأباح ذلك فى حدود تحقيق المتعة والسعادة لطالبها دون إيذاء الآخرين أو التعدى على حدودهم . فأقر أن للروح مطالباً ترقيها وتغذيها وتعالجها وتدفع عنها خبث الماديات ، فجعل ذلك عبادة جزاؤها رضى الخالق وسعادة الدارين .

قواعد وقوانين إسلامية للحماية والصيانة الذاتية

■ لأن الإسلام لا يريد للإنسان أن يكون عشوائياً فى حياته لم يكتف بإصدار التعليمات والأوامر ولا ترسيم الحدود لبيان الحلال والمباح ، ولكنه أعطى قواعد عامة تعتبر بمثابة الأجهزة الداخلية الذاتية التى تعمل «أوتوماتيكياً» مثل :

١ - حماية الإنسان نفسه من الآخرين . بكف شره عن الآخرين «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» .

٢ - حماية الإنسان من شرور نفسه ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ .

٣ - اكتشاف ما يضر مما ينفع حتى إن غاب عنه النص أو تعذر عليه فهمه «استفت قلبك فالإثم ما حاك فى نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس» .

الحدود الدنيا فى التعامل مع الآخرين

• ***صلة الناس ببعضهم حتم وضرورة :***

الناس للناس من بدو وحاضرة   بعض لبعض وإن لم يشعروا خدموا

وإيماناً من الإسلام بهذه الحقيقة جعل للإنسان حداً أدنى فى التعامل مع غيره من بنى البشر ، لا يعذر عن القيام به بعدم أو عجز من ذلك :

١ - أن الإسلام ألزم المسلمين بواجب التكافل الاجتماعى والتراحم الإنسانى زكاة تطهرهم وتطهر أموالهم وصدقة تقربهم إلى ربهم وتنجيهم من عذابه . . وحثهم على الإكثار من ذلك كل حسب طاقته وسعته حثاً متصاعداً لا يبلغ مداه فكلما أكثر منفق فعطاء الله له أكثر والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ويضاعف الله لمن يشاء ، وينزل الطلب مع تدنى القدرة والاستطاعة حتى يبلغ شق تمرة « اتقوا النار ولو بشق تمرة » وتبسمك فى وجه أخيك صدقة .

٢ - يلزم الإسلام الإنسان بالحرص على توضيح الطريق القويم لأخيه الإنسان ، وأمره بأن يسعى سعياً دؤوباً بأمل بلوغ التطابق فى الأعمال بالدعوة إليها بالأمر ، والدال على الخير كفاعله . . ويستمر الأمر مع ضعف القدرة على الدعوة والإرشاد إلى الخير ليبلغ حداً لا يعذر مسلم بعدمه ولا يوجد مسلم يعدمه وهو تبليغ آية واحدة « بلغوا عنى ولو آية » .

٣ - والناس من المسلمين مدعوون إلى الإسلام الدين الكامل والنعمة التامة الخاتمة ، فإن لم يكن ذلك فهم مدعوون إلى كلمة سواء بينهم ، ألا يشركوا بالله . . ومن لم يُجد معهم هذا التدرج إلى الحد الأدنى من دعوة الهداية والتوحيد، يبدأ معهم مشوار التعايش السلمى ﴿ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ ، ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ فإن لم يجد ذلك وبادر الطرف الآخر بالحرب فذلك قدر ، ولكن متى جنح المحارب إلى السلم كان لزاماً أن يقبل المسلم ويستجيب ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ﴾ ، ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ﴾ .

هذا المشوار يرينا بوضوح أن الإسلام دين هداية يدعو لها بالتى هى أحسن ، فإن لم تتحقق حرص على التعايش السلمى بين الناس . . ولكننا نلاحظ أنه ليس من خيارات الداعية فى أى حالة من الحالات ، حتى فى أضعف حالاته ليس له أن يتخلى عن ما عقله واعتقده حقاً ، فإن أكره وتعرض إلى تعذيب خاف معه على حياته مثلاً ، جاز له أن يظهر أو ينطق ما يحفظ به حياته . . على أن يكون قلبه حتى فى تلك الحالة مطمئناً بالإيمان .

يا له من دين يحافظ دائماً على الجوهر ويدعو القادر إلى الكثير الأسمى ، ويرضى من الضعيف بالقليل بالأدنى ، ولكن لا يكلف بالمستحيل إنما يصعد مع القوة والقدرة إلى ما فوقها ويهبط مع العجز والضعف إلى ما ليس تحته إلا الموت والعدم .

الوحدة الوطنية والالتزام الدينى

■ فى شهرى فبراير ومارس ٢٠٠٠م سلطت أجهزة الإعلام العالمية الأضواء على قضية فصل الدين عن السياسة بمناسبة الأحداث التى اندلعت فى جمهورية نيجيريا الاتحادية بسبب إعلان ثلاثة من ولايات أغلب سكانها من المسلمين اعتزامها تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ، وما تبع ذلك من احتجاج الأقلية المسيحية فى ولاية « كادونا » إحدى هذه الولايات وما نتج عن ذلك من أحداث عنف مؤسفة وصدامات دموية فى ولاية « كادونا » راحت ضحيتها بعض الأرواح من الأقلية المسيحية مما حرك ثورة عارمة بدافع المناصرة الإثنية أو الدينية راح ضحيتها أبرياء لا شرَّعوا ولا ظاهروا لا لسبب غير صلتهم العرقية أو الدينية بأنصار الشريعة فى ولاية « كادونا » .

لقد كان من بين الأنشطة الإعلامية التى تناولت هذا الموضوع ندوة إذاعية نظمها القسم العربى لهيئة الإذاعة البريطانية واشترك فيها أستاذ جامعى فى تونس مختص فى الشئون الإفريقية ومدير مركز دراسات فى القاهرة ، والسيد جمال نكروما الصحفى بجريدة الأهرام ، والدكتور أمين الدين أبو بكر رئيس جماعة الدعوة فى نيجيريا . وانقسم المتحدثون بين مدافع عن حق الملتزم دينياً فى الاحتكام إلى دينه وحق كل ولاية فى سن التشريعات التى ترتضيها أغلبية سكانها ، وبين داعٍ إلى فصل الدين عن السياسة حفاظاً على وحدة الدولة الوطنية ، وآخر قائل برأى توفيقى قائم على إعمال العقل فى المقارنة بين التطبيقات داعياً للمعقول والواقعى الممكن .

إن مما لا خلاف حوله أن الوحدة أو الاتحاد أمر هام واستراتيجى بالنسبة للفرد والجماعة ، وهدف ينبغى أن يسعى له كل من تعنيهم أسبابه ودواعيه ، وما أكثرها ، وبذلك فطبيعى أن يحرص عليه من حققوه أو ورثوه . ذلك توجه عالمى واضح من صورة التكتلات الإقليمية مثل مجلس التعاون الخليجى والاتحادات القارية كالاتحاد الأوروبى . وعلى قاعدة (ما لا يدرك كله لا يترك كله) فهناك - على مستوى الدولة - أنظمة تحافظ على الوحدة وتراعى التنوع والخصوصيات الثقافية أو غيرها ، منها النظام الاتحادى المتبع فى الولايات المتحدة الأمريكية وفى جمهورية نيجيريا نفسها . ومعلوم أنَّ معظم سكان الولايات المتحدة الأمريكية مهاجرون جاءوا أو جىء بهم من عدد من الدول الأوروبية

والآسيوية والإفريقية ، وذلك بعد أن اكتشفها « كروستوفر كلومبس » فى القرن الخامس عشر الميلادى . وهم بينهم ما بينهم وإلى الآن علامات ومؤشرات تباين الأصول الحضارية والإثنية والثقافية والمذهبية والدينية . ولكن النظام (الفيدرالى) ساعد على تعايش كل هذه التباينات ، فقد تلازم التسليم بالثوابت المشتركة والاتفاق على الحفاظ عليها ، ومن بينها الوحدة الوطنية ، مع التسليم بالخصوصيات ومقتضياتها ، ومن ذلك احترام اختيار أهل كل ولاية وكفالة حق كل ولاية فى سن ما يرونه من تشريعات وقوانين حتى لنجد أن ولاية منعت التدخين وأخرى حرمت على السائقين القيادة فى حالة السكر ، أما ولاية تكساس فقد تجاوزت أحكام الغرامة والسجن والجلد ، وحتى قطع الأطراف ، تجاوزت كل ذلك إلى الإعدام حقناً بمادة قاتلة ، وقد بلغ العدد عشر حالات فى مدى سنة واحدة تقريباً ! حدث هذا فى إحدى ولايات الولايات المتحدة الأمريكية ولم نسمع احتجاجاً من أقلية فى الولاية ولا من أهل ولاية أخرى ، كما لم يؤثر ذلك على احتجاج دولة أخرى كفرنسا ، ولم تثر ثائرة الإعلام مثلما حدث منها بسبب أحداث نيجيريا بسبب تطبيق أحكام العقوبات الشرعية الإسلامية فى بعض ولاياتها وبرضى الأغلبية الساحقة من سكانها . فلماذا الثورة هنا والصمت أو ما يشبهه هناك ؟! هل هذا ناتج عن تصور معين لأحكام العقوبات الشرعية سببه جهل بحقائقها وأسبابها وطرق إثباتها ؟ إن كان الجواب نعم فدواء كل ذلك الانكباب عليها بالدراسة التى لا أشك فى أنها ستنتهى بالدّارس إلى أن هذه العقوبات التى يفزع الناس منها ويتصورها أو يصورها البعض كأقسى ما يمكن أن تكون العقوبة هى فى الحقيقة أرحم العقوبات بالمتّهم لصعوبة إجراءات إثباتها ، فهى تحمى سمعته وشرفه بمعاقبة من يتهمه بعقوبة « حد القذف » ، وتبحث عن أسباب تبرئته فى كل شبهة لا يمكن إثباتها يقيناً بشهود عدول كما في قوله ﷺ « ادرءوا الحدود بالشبهات » .

إن بعض المعترضين على العقوبات (الحدّية) أعداء ما يجهلون ولو درسوها ووعوها ، بعيداً عن مؤثرات المواقف المسبقة ، فسيجدون أنها هي الأرحم بل اعتقد أن المجرمين أنفسهم لو دروا ذلك لطالبوا بأن يحاكموا على أساسها إن لم يكن للتطهير من الجريمة فللبراءة حتى مع يقينهم بأنهم فعلوا الجريمة ، وذلك لصعوبة إثباتها وفق ضوابط واحترازات الشريعة ولتشددها على المدعى وتغليظها العقوبة على من يفشل فى إثبات ما يتهم به غيره .

كما أن هنالك تناقض واضح بين تصاعد تيار الدعوة لصون الحريات ومن بينها حريات الاعتقاد والتعبير والاختيار وبين مثل هذا الموقف من الدين كله أو بعضه . ومع التسليم بأن للدين قداسة لا تحتمل التدخل بما يخالفها عند المعتقد فيه ، فإن محاولة التدخل انتهاك لهذه الحريات وتعدي على هذه القداسة ، وهى بعد محاولة مستحيل ، لأن ما تحاوله دونه النفوس عند بعض المعتقدين .

لكل ما سبق فإن ربط الوحدة الوطنية بشرط التنازل عن الالتزام الديني فعل إن لم نلتمس لصاحبه العذر بالجهل وسوء التقدير فلربما ساق لنفسه الاتهام بالمشاركة في مخطط أو مشروع تفتيت دول بعينها لأسباب تتصل بأسباب ودوافع الصراعات الحضارية والاقتصادية والسياسية و ذلك لأن الوحدة الوطنية في هذه الحالة تكون قد ربطت بشرط مستحيل ، وهو شرط إن استجاب له البعض فليس بمستبعد أن يرفضه آخرون من أهل هذا أو ذاك من المعتقدات إن عاجلاً أو آجلاً .

سألت أحد الإخوة من جنوب السودان : هل تعتقد أن الدولة تستطيع أن تمنع أهل دين من الديانات العرفية (الوضعية) في قبيلة من القبائل من ممارسة إحدى شعائرهم أو طقوس دينهم ؟! . . . قال : لا ! .

■ ● ■ ● ■

الخـــاتمة

■ هكذا ، رغم الرياح العواصف ورغم التشكيك والإرجاف ، يتضح لنا أن الإسلام بريء مما ألصقه به الوصوليون والجاهلون والمتربصون . وأنه رحمة الله للعالمين أجمعين . . لا يمكن حصره في مصر ، ولا قصره على عصر ، لأنه دين رب العالمين الذى أكمل به الدين وأتم نعمته وختمه ، أرشد لما سبق منذ الأزل وكشف ما سيلحق إلى الأزل ، خطط للفرد والجماعة والدولة والدول وللإنسان والحيوان وكافة المخلوقات ، فبيّن لكل حقه وحدد لكل واجبه ، قعد للعلاقات وقنن المعاملات ، ولبى مطالب الروح والجَسد واستجاب لكل فطرة استجابةً موزونة . اعترف بالفرد والفردية وصانها وأمر بالتكافل وبيّن فضله ، فقبل من الضعيف والعاجز قدرته وفرض لذى الحاجة حاجته ، وسع التباين واستوعب التعدد مستجيباً لظروف الزمان والمكان تمدداً وتجدداً من غير تفريط ولا إفراط .

فكان بذلك الطلسم الوحيد الذى يستطيع فك رموزه العامة والبسطاء ، والبلسم النهائى الذى ينتهى إليه الخاصة والعلماء ، من اهتدى إليه اهتدى ومن ضل عنه ضل ، ومن رام الرواء من غيره طارد السراب فطال ظمأه .

لم يحدد كماً فينفد ، ولم يعين كيفاً فيبدل . . أطلق بعد صريح القرآن وصحيح السنة للعقل عقاله مرناً معقولاً جميلاً متدوجاً يقبل أدنى المستطاع وأعلى الممكن ، ما لم يكن إثماً . . وسع طاقات المجاهدين وتطلعات المجتهدين ، ويسعهم هكذا إلى يوم الدين .

■ ● ■ ● ■

المراجــع

١ – القرآن الكريم.

٢ – صفى الدين المباركفورى – الرحيق المختوم.

٣ – د. حسن الترابى – مناظرة تلفزيونية – السودان ٢٨/ ٧/ ١٩٨٦م.

٤ – مقررات مؤتمر المعارضة السودانية بأسمرا ١٩٩٥م.

٥ – الولايات المتحدة وتقرير عن حقوق الإنسان فى عام ١٩٩٦م.

٦ – فهمى هويدى – جريدة الأهرام عدد – بتاريخ ١٩٩٦م.

٧ – د. محمد عبده يمانى – كتاب علموا أبناءكم محبة رسول الله ﷺ.

٨ – آدم عبد الله الألورى – الإسلام فى غرب افريقيا.

٩ – الشيخ إبراهيم صالح الحسنى النووى – نيجيريا.

١٠ – د. عبد الله محمد قسم السيد– الجوع مفتاح الكفر.

١١ – ميخائيل غورباتشوف – البروسترويكا «إعادة البناء».

١٢ – مجلة حريتى المصرية عدد ٢٥/٨/١٩٩٦م.

١٣ – د. محمد سعيد القدال – الإسلام والسياسة فى السودان.

١٤ – ب. م. هولت – كتاب المهدية فى السودان.

١٥ – د. محمد إبراهيم أبو سليم – منشورات المهدية.

١٦ – إسماعيل عبد القادر الكردفانى – سعادة المستهدى بسيرة الإمام المهدى.

١٧ – الصادق المهدى – كتاب الديمقراطية عائدة وراجحة.

■ ● ■ ● ■

المؤلف فى سطور

١ - من مواليد ١٩٥١م بقرية ود الجمل الخوالدة - مركز مدنى .

٢ - عمل بالتدريس بالمرحلة الابتدائية لمدة سنتين بعد الثانوى فى ١٩٧٠م ثم بالمرحلة المتوسطة .

٣ - تخرج فى معهد بخت الرضا - كلية المعلمين الوسطى ٧٤ - ١٩٧٥م بدبلوم فى التربية وطرق التدريس للتاريخ واللغتين العربية والإنجليزية .

٤ - التحق بجامعة أم درمان الإسلامية وتخرج فيها من قسم الاجتماع ١٩٨٠م .

٥ - عمل مدرساً للغة العربية والدراسات الإسلامية بكلية معلمى اللغة العربية A.T.C فى مايدغرى عاصمة ولاية البرنو النيجيرية ٨٠ - ١٩٨٤م .

٦ - عمل مدرساً للغة الإنجليزية بوزارة المعارف بالسعودية ٨٤ - ١٩٨٩م .

٧ - وقع عليه الاختيار للتفرغ للعمل الأنصارى فاستقال وعاد إلى السودان فى ٢٦/ ٦/ ١٩٨٩م .

٨ - عمل فى مجال الدعوة وتولى أمانة الدعوة والإرشاد بهيئة شئون الأنصار لبعض الوقت .

٩ - عمل فى المجال التعاونى والاجتماعى وإدارة الأندية لعدة سنوات .

١٠ - تعرض للاعتقال خمس مرات فى عهد حكومة جماعة الترابى .

١١ - اختير أميناً للاتصال الخارجى لهيئة شئون الأنصار منذ ١٩٩٥م .

١٢ - يحضّر فى الدراسات الاجتماعية .

١٣ - نشرت له بعض المقالات والدراسات السياسية والاجتماعية والدينية فى صحيفة صوت الأمة السودانية وصحيفتى الخرطوم والاتحادى الدولية وبعض الصحف العربية .

١٤ - صدر له حتى الآن : (أ) صور ، مقارنات بين حقيقة الإسلام وتجربة الانقاذ .
(ب) رسالة حول راتب الإمام المهدى .
(جـ) منابع البطاقة الفكرية - لحزب الأمة السودانى .

١٥ - لـه تحـت الطبـع :
* برنامج اليوم والليلة للأنصارى .
* أزمة الجدية - تأملات نقدية سياسية اجتماعية .
* جماعة الترابى - الجذور والثمار .
* جماعة الترابى - فقدان الهوية والمصداقية وحصاد الهشيم .
* هنا وهناك بحثاً عن سودان ديموقراطى مستقر - مجموعة مقالات .
* قول ومعنى .
* الحركة الأنصارية - حقائق وآفاق .
* أنت والحركة الأنصارية .
* الآثار السلبية للتعذيب .
* التعليم فى السودان - ماضيه ، حاضره ، مستقبله .
* المرأة فى كيان الأنصار وحزب الأمة .

المحتـــويات

الموضـــــــوع	الصفحة
الإهداء	٥
تقـديم	٧
المقدمة	١١
أسئلة لا يمكن تجاهلها	١٣
قصور الاستيعاب أم ضعف الالتزام	١٥
حقائق الإسلام بين أخطاء الممارسة والفهم وأغراض الخصوم	١٧
من هنا تركبت الأخطاء	٢٠
جبهويون من حيث لا يدرون	٢١
ليس لغير المسلمين مفقود يطلبونه	٢٥
بؤرة الاختلاف	٢٨
الإسلام . . ذلك الدين المظلوم فى محكمة السياسة المعاصرة	٢٩
أين ومتى ولماذا ظهرت الدعوة لفصل الدين عن السياسة ؟	٣٠
الإسلام والعلم	٣١
شهادات معاصرة لصالح الإسلام :	٣٢
- الطب والإسلام	٣٢
- مسألة الجنس وموقف الإسلام منها	٣٣
- إنما يخشى الله من عباده العلماء	٣٥
- كيف انتشر الإسلام	٤٠
- الإسلام فى افريقيا جنوب الصحراء	٤٠
- فى شرق وجنوب شرق آسيا	٤١
- الإسلام يغزو الغرب الغالب	٤١
- قوة الدليل المكتوب، «الأستاذ الهندى»	٤٢
- قوة البيان العملى «بابا سامبو»	٤٢
- الفرق بين هذا وذاك	٤٥

الموضـــــــوع	الصفحة
الخصمان والقاضى متفقون	٤٨
الأهداف السياسية العليا	٥٦
ظهور الدولة الحديثة	٥٧
فى رحاب المهدية	٦٠
الحركة الوطنية «فترة الاستعمار الثنائى»	٦٣
أهم صفات قادة الحركة الوطنية	٦٤
تجارب التمرد على الموروث السياسى :	٦٧
- تجربة حكم الجنرالات «١٩٥٨ ـ ١٩٦٤»	٦٧
- تجربة مايو ١٩٦٩م. «الشيوعيون ـ المثقفون»	٦٨
- تجربة جماعة الترابى ١٩٨٩	٧٠
سوس السياسة :	٧١
١ - العنصرية	٧١
٢ - الجهوية	٧٢
٣ - الحياد المتحرك	٧٣
٤ - الاستقلالية المستغلة	٧٣
٥ - العصبية العمياء	٧٤
٦ - التنازل العمودى	٧٤
٧ - الشخصية	٧٤
٨ - المجاملة	٧٥
٩ - السطحية	٧٥
١٠ - الرياء والملق	٧٦
١١ - الانفعال	٧٦
١٢ - الحسد	٧٧
١٣ - سوء الاستغلال	٧٧
١٤ - قصور الثقافة	٧٨

الموضـــــــوع	الصفحة
كيف نحقق سعادة الإنسان؟	٨١
موقف الإسلام من القضايا الأساسية :	
(الفطرة والغريزة ، العقل ، الحرية ، الملكية)	٨٣
الموازنة الإسلامية	٩٠
قواعد التصحيح الذاتى	٩٢
الحدود الدنيا فى التعامل مع الآخرين	٩٢
الوحدة الوطنية والالتزام الدينى	٩٤
الخـاتمة	٩٧
المـراجـع	٩٩
المحتويات	١٠١






دار الأمين للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة - جمهورية مصر العربية

الدين والسياسة في السودان ...



■ يتناول هذا الكتاب علاقة الدين بالسياسة . وهى علاقة يزعم البعض أنها سبب كثير من المشاكل السياسية ، ويذهب البعض إلى أنها علاج لهذه المشاكل. ولكنّ الناس فى موقفهم من هذا التشخيص أكثر من فريقين .. فإذا كان المتطرفون يساراً يرون العلاج فى الفصل قولاً واحداً يقابلون بذلك المتطرفين يميناً الذين يقولون بوصل انكفائى أو أحادى إكراهى ، فإن هنالك مدرسة أخرى يسميها البعض مدرسة المستنيرين أو مدرسة الصحوة أو مدرسة الاعتدال لها مذهب يرفض التحامل على الدين جهلاً أو قصداً ، كما يرفض طريقة الإكراه ومذهب الانكفاء . ومن معين هذه المدرسة يأتى هذا الكتاب محاولة لتناول موضوعى عقلانى يسترشد بالنقل والعقل والواقع ، ويأخذ السودان مثالاً فى تشخيصه للداء ووصفه للدواء .

أسأل الله أن يجعل فيه ما يفيد القارئ والأمة والإنسانية .

المؤلف



دار الأمين ـ القاهرة